

الأدب الكبير

عبد الله بن المقفع



الأدب الكبير

الأدب الكبير

تأليف
عبد الله بن المقفع

تحقيق
محمد حسن المرصفي



رقم إيداع ١٤٢٤٢ / ٢٠١٤

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٩٩٥ ٧

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ + ٢٠٢ فاكس: ٣٥٣٦٥٨٥٣ + ٢٠٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2016 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

| | |
|----|--|
| ٧ | مقدمة المُحقّق |
| ١٥ | قال عبد الله بن المقفع في فضل الأقدمين |
| ٢١ | المقالة الأولى: في السلطان |
| ٢٣ | ١- في آداب السلطان وفيه مطالب |
| ٣٥ | ٢- في صحبة السلطان |
| ٤٩ | المقالة الثانية: في الأصدقاء |
| ٥١ | ١- في الأصدقاء |

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم نَسْتَفْتِحُ القَوْلَ، وبحمده نَسْتَمِنِحُه الحَوْلَ والطَّوْلَ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

أمّا بعدُ، فهذه كلمات في «الحِكْمَةُ المَدَنِيَّة»^١ تلقَّفها الناسُ أجيالاً، وتناقلوها أحقاباً، وفُتِنَ بها الكاتبُ الأديبُ والناقدُ الأريبُ؛ إذ كانت تَدَبِيحُ يِرَاعَةَ رَعِيمِ المُنشئينِ وقُدوةِ الكاتبينِ «عبد الله بن المقفَّع» ذلك الذي دان له النُّقادُ بالبراعةِ في تحقيقِ الحِكْمَةِ البالغةِ، وتحبيرِ الموعدةِ النافعةِ.

^١ اعتاد الأوَّلون من العرب واليونان أن يقسِّموا الفلسفةَ أربعةَ أقسامٍ؛ أولها: الفلسفةُ الطَّبِيعِيَّةُ، أو العلمُ الأدنى، ويبحثون في هذا القسمِ عن الأجسامِ الطَّبِيعِيَّةِ وما ينالها من الصفاتِ. الثاني: الفلسفةُ الرِياضيَّةُ، أو العلمُ الأوسط، ويبحثون في هذا القسمِ عن الأشكالِ والسطوحِ والعددِ، وما لها من الخواصِ وما بينها من النسبِ. الثالث: الفلسفةُ الإلهيَّةُ، أو العلمُ الأعلى، أو العلمُ الكُلِّيُّ، ويبحثون فيه عن الإلهِ وصفاته، وعن الوجودِ وما يشابهه من الأمور التي تعمُّ الكونَ كله. الرابع: الفلسفةُ الأدبيَّةُ، أو العمليَّةُ، وهي عندهم ثلاثةَ أقسامٍ؛ أولها: الأخلاقُ، وفيه تدبيرُ نفسِ الفردِ. الثاني: تدبيرُ المنزلِ، وفيه سياسةُ الأسرةِ. الثالث: السياسةُ، أو الفلسفةُ المدنيَّةُ، وفيه تدبيرُ الأُمَّةِ أو المدينةِ، وبيانُ ما بين أفرادهما من الروابطِ والأواصرِ، والقواعدِ التي ينبغي أن يقومَ عليها الاجتماعُ. وهذا النوعُ بطبيعتهِ منقسمٌ إلى نوعين، فإنَّ البحثَ إمَّا أن يتصلَ بما بين الأفرادِ أنفسهم من الصلاتِ، أو بما بينهم وبين الحكومةِ منها.

وإذ كان كتابُ «ابن المقفَّع» لا يتجاوزُ في جميعِ حكمه وقضاياهِ هذينِ النوعينِ، فلا جرمَ كان اسمُ «الحكمةِ المدنيَّة» أوفقَ الأسماءِ له، وأدلُّها عليه.

اسم الكتاب

وسموها «بالدرّة اليتيمة» مرّة، ثم «بالأدب الكبير» أخرى، ولها من كلتا السّمّتين أوفر نصيب، فليس لاختلافهم إذن فائدة؛ يُعدُّ الإعراض عنها ضرباً من البُخل على القارئ بتحقيق الاسم، أو نوعاً من التّقصير في تمحيص العُنوان. بل إنَّ أقلَّ ما يُفیده هذا الاختلاف إنما هو تَقوية حُجّة القائلين بأن التسمية لم تكن من قِبَل «عبد الله» نفسه، وإنما هي من عَمَل مَنْ جاء بعده، وهو الذي نختاره ونطمئن إليه.

معاني الكتاب

وأما ما جاء بهذا السُّفر من الخواطر، وإن لم تختص بفئة دون فئة، ولم تُقصر على إقليم دون إقليم، فإننا نراها منقولةً كلها عن الفُرُس كما ذهب إليه «الباقِلاني» في كتابه «الإعجاز»، وإلا فلننقل فيها صبغة واضحة وأثرٌ جلي. وسواء أصحَّ نقلها عن قومه، أم كانت مما دلت عليه بصيرته، وأوحته إليه قريحته، فإنها للناس مصدرٌ خير كبير وفضل كثير.

العناية بطبع الكتاب

ولئن عرفنا لهذا السُّفر فضله وأدركنا خطره، فقد عرفه غيرنا من قبل، فعُني بطبعه ونشره؛ رغبةً في الآداب وحرصاً على آثار الأولين من نوابغ الأدباء وأفذاذ الحكماء. غير أنّ الذي نُشر من هذا المطبوع بين الناس لم يمنعنا أن نُلقِي هذا الدُّلو بين الدّلاء، فقد رأيناه بين قليل الثمن — ولكنه رديء الطبع — لا يُعني الطالب غناءً ولا ينال من نفسه رضاء.

وبين جيد الطبع محكم الوضع — ولكنه كثير الثمن — قد حاز رضى من نظارة المعارف، ونال قبولاً من جمهور القارئین. وكتابٌ هذه خصائصه خليقٌ بما ظفر به من حبٍّ، حريٌّ بما حظي لديه من ثقة، محتاجٌ إلى أن تعم الفائدة منه ويكثر الانتفاع به بين الأغنياء والمُترين.

فضل زكي باشا على الكتاب

ولا سيِّما أنه يدُّ لذلك البجَّاة النشيط «الأستاذ أحمد زكي باشا، كاتب أسرار مجلس النظَّار».

ذلك الذي عُني بتجويد طبعه، وإصلاح لفظه، وشرح غريبه، وتحرير معانيه، وهو فوق هذا كله لم يخلُ من كثير الخطأ والتصحيح، ومن جمِّ السهو والتحريف، متجاوزاً عنايةً ما كان أشدها! وحرصاً ما كان أيقظه!

تقدير عمل الباشا في الكتاب

وإنا لنظلمُ «سعادة الباشا» إذا لم ينلْ منَّا اعترافاً له بالنَّصِّب في سبيل البحث، وبالْعناء والمشقات وراء التحقيق.

فلقد عرفناه يجوب القفار، ويقطع البحار، ويسهر الليل ويكد النهار؛ سعياً وراء أمانيه التي لم تكن — والحمدُ لله — إلا علميةً في محض إخلاص. وحسبُه ما أتى به من مكاتب الشرق والغرب، وشَرَعَتْ نظارة المعارف في طبعه منذ حين.

ذلك حقُّ لا مرية فيه، كما أنه لا مَسحة للمراءاة عليه، وكيف؟ ولم أعلم من ذوي المعرفة والدَّراية، ولا من أهل الخبرة والبصيرة من أوتي صبره على البحث، وجَلَدَه في التنقيب، ولا من قرَّب للعلم هذه القرابين من الوقت والنفس والمال.

لهذا البجَّاة المحقق شديد الرغبة في التغيير والتبديل وفي المحو والإثبات، قلَّ أن يُجاربه فيها غيره ممن نَهَجَ هذي الطريق في خدمة العلم وآله؛ حتى لقد يَخْرُجُ الكتاب من بين يديه كتابين، والفرُّ فنين، ولا لومَ عليه في ذلك ولا تَثْرِب، فإن للبحث نَزْعَةً لا تتفق والاختصار في سبيل، ولا تلتئم مع الاقتصاد في طريق.

على أن أيسر ما نستنبطه من هذه الأعمال إنما هو خَصْلة من أجمل الخصال في عظماء الرجال؛ تلك أنْ نفسَه طَّلَاعَةٌ إلى الغاية، نَزَاعَةٌ إلى الكمال، «وإنْ كان الكمال لله وحده لا يشاطره إياه نَدُّ، ولا ينازعه فيه شريك».

لذلك تراه في نسخته^٢ التي نَشَرها لم يقتصر في جدول الخطأ والصواب على ما ليس له مُتَنَفَسٌ من تأويل، ولا مُتَسَرَّبٌ من تخريج، بل تراه يترك الشكَّ إلى اليقين، ويجتاز الفصيح إلى الأوضح؛ شأن المستشرقين في تحقيق مباحثهم، والمجتهدين في تمحيص آرائهم. وليس أدلَّ على ذلك من هذا الجدول الذي أثبت فيه تحقيقاً ونفى تأويلاً، وأتى بآية ونسخ آية، حتى بلغت صفحات الخطأ والصواب عشراً،^٣ حاشا الاستدراكات، فقد ابنتى لها فصلاً؛ آخر ذيل به الكتاب الذي لم يملأ بعدُ «ستة أفرخ من القطع الصغير». كل هذا ليس بمنكرٍ على أحد، ولا مأخوذ به إنسان، مادامنا نلجأ بعد ذلك إلى جِرِّزٍ حريز من صواب الرأي ورُكْنٍ شديدٍ من صحيح القول.

وإنما الذي إيَّاه نعيب وله نستزري ألا يضمن الرجل ثقته بنفسه، أو أن يلوح له من عمله ما يُزعزع هذه الثقة — إن كانت — ثم لا يسعى لها سعيها، فيتلمَّسها في المظان، ويفتقدها في آثار الناس.

نذكر الآن بعض ما ورد في جدول الخطأ والصواب مثلاً لذلك؛ فقد جاء بصفحة ١٨ ضبطُ اللَّفْظِ «حَرَصُوا» بكسر الراء، ثم وردت بالجدول في مصافِّ الخطأ، قال: والصواب فتحها، وهذا حسنٌ كلَّ الحسن؛ لأن كسر الراء لغة أو لُغِيَّة، والفتح — لا شكَّ — أفصح، فنحن نوافقُه على هذا ونشايعه فيه، ونشكره إيَّاه؛ لأنه دأب في سبيل الكمال، كما أنه عهدٌ عليه وميثاق منه، برغبته عن الفصح إلى الأوضح، ورجوعه عن الصالح إلى الأصلح.

وإنما الذي لا نرضاه «لسعادة الباشا» ولا نُقرُّه عليه ما جاء بصفحة ٧٥، فقد ضبط فيها لفظ «يكسبُه» ثلاثياً في هذه الجملة: «وإنَّ الشريرَ يَكْسِبُكَ الأعداء.» ثم ورد في الجدول مُخْطأً، فأما أننا لا نرضاه له ولا نُقرُّه عليه؛ فلأن التعديل فيه معكوس مخلوط، والتحرير مختل معتل، ولو وُفِّق «سعادة الباشا» لارتضى ما أقرَّته المصادفة، ولاكتفى بما خدَمته به محاسنُ الموافقة.

ذلك أن «كسب» الثلاثي يجتاز إلى مفعولين بنفسه، غير محتاج في تعديته إلى حرف ولا صيغة، فنقول: «كسبنا الله الخير.» و«كسبنا الاجتهاد حسن الصواب.»

^٢ وهي الطبعة الأولى التي ظهرت في سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م، ولم يظهر غيرها بقلمه حتى الآن.

^٣ من صفحة ١٤٠ إلى ١٤٩.

^٤ من صفحة ١٣٣ إلى ١٣٨.

وعلى هذا اتفق جمهور اللغويين حتى قالوا — أو كادوا — بلسان الإجماع: ليس في اللغة فعل مهموز من «كسب» اللهم إلا ابن الأعرابي الذي أجاز الرباعي مع شدة إنكار اللغويين له ووزرايتهم عليه، وأنشد: «فأكسبني مالاً وأكسبته حمداً». وإن وافقه «ابن يعقوب» وذكره في صورة تُشعر بضعفه.

إذن فالثلاثي هو الذي تعرفه اللغة، وما داخل الشك لغويًا فيه، بخلاف الرباعي الذي أجمعوا على إنكاره — كما قدمنا — وإليه يُشير «أحمد بن يحيى» بقوله: كلُّهم يقول كَسَبَ إلا «ابن الأعرابي» فيقول أكسب.

عتبنا على الباشا في احتكار الكتاب

بقي أماننا الآن شيء عَرَض في مقدمة كتابه، ولسنا نريد أن نمرَّ به مرَّ الكرام — كما يقول الكاتبون — فليست هذه بمنزلة الأستاذ، وإنما هو من أول الذين يجب أن يُغني جمهور الناس بكل ما نطق به لسانه أو جرى به قلمه، ويُحاسبوه عليه حسابًا ولو يسيرًا. وإنما نريد أن نشير إليه ونعتب على «الأستاذ» فيه؛ احتفالاً بشأنه وتنزيهاً لقلمه عن مثل الذي سقط فيه، وجديرٌ بنا قبل ذلك أن نقف بالقارئ على لفظه الذي جاد به بناؤه، وجاش به جنانه. قال بعد كلمة وجيزة في أنه أهدى إلى جمعية العروة الوثقى كتابين، هما جرثومة الأدب ومن خير ما ظهر بلسان العرب:

تجلَّى «الأدب الصغير» منذ عام في ثوب قَشِيبٍ بديع النظام، فحيَّاهُ أمراء
الفصاحة واستبشر به أهل الرأي وأرباب الحصافة، ونال عند الفريقين مكانته
الجدير بها من التجلَّة والإكرام، نال من الرواج ما جعل بعض البله المتطفلين
يقلده بلا خجل، وفاته «أنَّ التكحل غير الكحل».

لعمري! إنَّ هذا التقليد لا يسوءنا مطلقًا، فالعاجز «المزور» إنما «يتسكع»
في تقليد البضاعة المقبولة؛ ليكسب من وراء جريته السحت والحرام!
لو أنَّ الأغرار المغرورين «يتقدمون إلينا»^٥ «لنهدبهم شيئاً»^٦ يجعل لهم
ذكرًا محمودًا، ولنهدبهم السبيل الذي يكون لهم في نهايته مقامًا كريمًا؛ لفعلنا.

^٥ مما يؤسف عليه أنَّ الاستعمال لا يرضى ذلك؛ فإن «تقدم إليه» لا يُستعمل إلا بمعنى «أمره»، ولا نظنُّ الباشا قد قصد إلى ذلك سبيلًا.

^٦ الصواب: لنهدي إليهم، أو نهدي لهم.

والله على ما نقول شهيد، وَيَقِينُنَا أَيضًا أَنَّهُمْ إِذَا التَّمَسُّوا مِنْ تِلْكَ «الْجَمْعِيَّةِ»^٧ نَوَالًا مِنْ هَذَا الْبَابِ لَمَّا بَخَلْتُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ وَظَيْفَتَهَا إِسْدَاءَ الْخَيْرِ وَنَفْعِ النَّاسِ. لَكِنَّ «الْإِنْحِطَاطَ» بَلَغَ مِنْ بَعْضِ الَّذِينَ «لَا خَلَقَ لَهُمْ» أَنَّهُمْ يُؤَثِّرُونَ التَّدْنِيَّ فِي الْأَخْلَاقِ وَالتَّدْنِيَّ فِي الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الرِّزْقَ الْحَلَالَ لَا يُجَدِّبُهُمْ، وَالرِّيحَ الطَّيِّبَةَ تُؤَدِّبُهُمْ، فَهَمْ لَا يِبَالُونَ إِذَا مَا تَشَبَّهُوا «بِالْحَيَوِيَّاتِ»^٧ الْحَلْمِيَّةِ أَوْ النَّبَاتَاتِ الطَّفِيلِيَّةِ، «وَمَاذَا نَقُولُ فِي الْفُضُولِ، وَاللَّهُ فِي خَلْقِهِ شَتُونَ؟»^٧ عَلَى أَنَّهُ مَا دَامَ أَهْلُ الشَّهَامَةِ يَتَضَافِرُونَ عَلَى رَفْعِ مَسْتَوَى الْأَخْلَاقِ وَالْإِرْتِقَاءِ بِهَا فِي سَلْمِ الْكَمَالِ، فَلَا بُدَّ لِلْفُضِيلَةِ مِنَ التَّغْلِبِ عَلَى ذَلِكَ الصَّنْفِ مِنَ الْحَيَوَانِ، فَيَنْقَرُضُ «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» مِنْ جِثْمَانِنَا الْاجْتِمَاعِيِّ، تَبَعًا لِلنَّامُوسِ الْعِمْرَانِيِّ الدَّائِمِ، وَهُوَ بَقَاءُ الْأَصْلِحِ وَالْأَنْسَبِ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جَفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ.

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ أَوْلَثَكَ الَّذِينَ نَالَهُمْ «الْبَاشَا» بِقَلَمِهِ قَدْ أَحْفَظُوهُ وَأَحْرَجُوا صَدْرَهُ؛ حَتَّى لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْظِمَ غِيْظَهُ أَوْ يَكْفُفَ غَرِبَهُ، أَوْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ عَنِ الْوُقُوعِ فِيْمَا وَقَعَ فِيهِ مِمَّا لَا يَحْسَنُ بِهِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ. وَلَعَمْرِي لَقَدْ وَقَفَ الْبَاشَا نَفْسَهُ بِمَنْزِلَةِ هِيَ إِلَى الْخَطَا أَدْنَى مِنْهَا إِلَى الصَّوَابِ، فَقَدْ كَانَ مَقَامُ خُصُومِهِ خَلِيقًا أَنْ يُعْصِمَهُمْ مِنْ لِسَانِهِ «إِنْ كَانُوا كِبَارًا»، أَوْ أَنْ يَعْصِمَ لِسَانَهُ مِنْهُمْ «إِنْ كَانُوا صَغَارًا»، وَمَا كَانَ لِلْبَاشَا — وَهُوَ الْحَرِيصُ عَلَى إِذَاعَةِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ الْمُعْنِيَّ بِإِشَاعَةِ الْأَدَبِ وَنَفْعِهِ فِي الْجُمْهُورِ — أَنْ يَمِيلَ إِلَى احْتِكَارِ كِتَابِ نَشْرِهِ وَجَدِّ فِي طَبْعِهِ، وَإِنَّمَا الْجَدِيرُ بِهِ الْمَرْضِيُّ مِنْهُ أَنْ يَسْتَبَشِّرَ حِينَ يَرَى تَدَاوُلَ النَّاسِ لَهُ، وَتَهَالُكِهِمْ عَلَيْهِ.

عنايتنا بالكتاب

وها نحن أولاء قد عمدنا إلى الكتاب، فأعدنا طبعه، وحققنا لفظه، وشرحنا غريبه، ورتبنا معناه، وخفضنا ثمنه.

فجعلناه مقاليتين كما كان يصنع قدماء الحكماء بكتبهم، وجعلنا الأولى في السلطان منقسمة إلى بابين؛ الأول: في آدابه والثاني: في صحبته، وجعلنا الثانية لأداب الأصدقاء

^٧ الصواب: «بالحيوانات»؛ لأن التصغير هنا يجب أن يكون في المفرد لا في الجمع.

شاملة، ولما يحسن بهم من خلال حاوية، ثم سمونا إلى معاني الكتاب فقسمنها مطالب، وجعلنا لكل مطلب عنواناً، ووضعنا بهذه العنوانات ثبّتاً (فهرساً) يُرجع في البحث إليه، ويُعتمد في التنقيب عليه؛ ليكون متناولاً على التلميذ أسهل، وجنّاه إلى الطالب أدنى.

إذ كانت هذه الطريقة لنفوس التلاميذ ألف، ولطباعهم ألق، وإذ كانوا لا يُحبّون كتاباً ولا يحرصون على النظر فيه إلّا إذا ازدان بها، وتَحلّى بجمالها.

وقد جمعنا من نسخ الكتاب المنشورة والمخطوطة ما ائتلف منها وما اختلف، فلاءمنا بين متنافرها، ووقفنا بين متمانعها، واستخرجنا منه نسخة ما نرى إلّا أنها أحسن مظهر للوفاق، وأجمل معرض للانسجام.

ورأينا أنّ هذه النسخ لم تتفق في ترتيب المعاني بعضها إلى بعض، ولم نعرف لترتيب بعينه روايةً صحيحةً عن «ابن المقفع»؛ فأثرنا أن نبدّل من أنفسنا في ذلك جهداً، وأن نقر كل معنّى مما قبله وما بعده في نصابه، ونضعه في المكان المقسوم له؛ حتى تأخذ فصول الكتاب بعضها بحُجْرة بعض، فلا يقع القارئ في سوء الانتقال.

ولسنا ندعي لأنفسنا العِصمة من الخطأ، ولا ننتحل لها البراءة من الزلل، ولا نُظهرها مظهرَ الضعيف المتردد، ولا الشاك المرتاب.

وإنما نُعلن أننا قد بذلنا في هذا الكتاب عملاً ما، أرحب ما نكونُ صدرًا لقبول ما يوجّه إلينا من نقد، وأطيب ما نكونُ نفساً باتباع ما يُهدى إلينا من إرشاد، والله ولي التوفيق.

محمد حسن نائل المرصفي

القاهرة غرة الحجة سنة ١٣٣١ هجرية

قال عبد الله بن المقفع في فضل الأقدمين

إننا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجسامًا، وأوفرًا مع أجسامهم أحلامًا،^٢ وأشدَّ قوةً، وأحسنَ بقوتهم للأمور إتقانًا، وأطولَ أعمارًا، وأفضلَ بأعمارهم للأشياء اختبارًا.^٣ فكان صاحبُ الدِّين منهم أبلغُ في أمر الدِّين علمًا وعملاً من صاحب الدِّين منَّا، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل. ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل الذي قُسم لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة، فكتبوا به الكتب الباقية، وضربوا الأمثال الشافية، وكفَّونا به مئونة^٥ التجارب والفِطَن.

^١ أكثر.

^٢ الأحلام: جمع جِلْم بالكسر وهو العقل، ويروى: أجسادهم بدل أجسامهم.

^٣ يريد أن طول أعمارهم وكثر ممارستهم، جعل اختبارهم للأشياء ووقوفهم على الحقائق أفضل من اختبارنا وأقرب منه إلى الصواب.

^٤ أي أكثر تمسكًا بالعلم وأشدَّ حرصًا على العمل.

^٥ المئونة بالضم والفتح: المشقة والعناء، والتجارب بكسر الراء: جمع تجربة بكسرهما أيضًا، وهي اختبار الشيء مرة بعد أخرى.

وبَلَغَ من اهتمامهم بذلك أَنَّ الرجل منهم كان يُفْتَح له الباب من العلم، أو الكلمة من الصواب — وهو في البلد غير المأهول^٦ — فيكتبه على الصخور مبادرةً للأجل، وكراهيةً منه أن يسْقُط^٧ ذلك عمَّن بعده.

فكان صَنِيعهم في ذلك صنِيعَ الوالد الشفيق على ولده، الرحيم البرّ بهم، الذي يجمع لهم الأموال والعقد^٨، إرادةً ألا تكون عليهم مئونة في الطلب، وخشية عجزهم إن هم طلبوا. فمُنْتَهَى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسانٍ مُحْسِننا أن يقتدي بسيرتهم.

وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم، فيكون كأنه إياهم يحاور^٩، ومنهم يستمع، وأثارهم يتبع، وعلى أفعالهم يحتدي، وبهم يقتدي. غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتحل^{١٠} من آرائهم، والمنتقى من أحاديثهم. ولم نجدهم غادروا^{١١} شيئاً جيداً واصفٌ بليغ في صفة له غايةً^{١٢} لم يسبقوه إليها؛ لا في تعظيم الله — عزَّ وجلَّ — وترغيبٍ فيما عنده، ولا في تصغيرٍ للدنيا وتزهيدٍ فيها،

^٦ أي الذي ليس فيه أهل يسكنونه.

^٧ يقول: كان المتقدمون إذا ما عنث لأحدهم خاطرة أو سنحت لهم شاردة، بادروا بتدوينها على الصخور؛ خشيةً أن يوافيهم الأجل فتسقط عن بعدهم وتضيع على سواهم، ويروى: كراهية لأن يسقط.

^٨ العقد: جمع عقدة، وهي العقار ونحوه، وفسرها الأستاذ الشنقيطي بأنها النفائس من الأموال، ولو كان ذلك مراداً للكاتب لغض من مكائنها ذكر الأموال قبلها.

^٩ إياهم: مفعول مقدم ليحاور، ومثله أثارهم مفعول ليتبع، والمحاورة: المناقشة، ضاق ذرع الكاتب من أهل عصره فوصفهم بالأناصيب لهم من الإبداع، ولا حظ من الابتكار، وليس لهم إلا أن يتلمسوا طريقاً لتقدمهم فيطلبوه، أو مثلاً لهم فيحتذوه؛ بالفاظهم يعبرون وآرائهم يفكرون كأنهم جميعاً في مجلس يتحاورون.

سقط من بعض النسخ قوله: «وعلى أفعالهم يحتدي، وبهم يقتدي»، ولكن هذا التركيب بأسلوب

ابن المقفع أُلصق.

^{١٠} المختار: المنتقى، جاء في حرف الجر الداخل على آرائهم خُلفٌ في بعض النسخ، فورد لفظ في بدل من، والذي ذكرناه أنسب.

^{١١} غادروا: تركوا.

^{١٢} ويروى: مقالاً لم يسبقوه إليه.

ولا في تحرير صنوف العلم، وتقسيم قسَمِها،^{١٣} وتجزئة أجزائها وتوضيح سُئِلِها وتبيين مآخذها، ولا في وجه من وجوه الأدب وضُروب الأخلاق.^{١٤}
فلم يبق في جليل الأمر ولا صغيره لقاتل بعدهم مقال.
وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار^{١٥} الفطن، مُشتقة من جسام حِكَم الأولين وقولهم؛ فمن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبواب الأدب التي قد^{١٦} يحتاج إليها الناس.

مطلبٌ «في الحث على تعرف أصل العلم وفصله»

يا طالب العلم!

إن كنت نوعَ العِلْم تريد^{١٧} فاعرف الأصول والفصول؛ فإن كثيرًا من الناس يطلبون الفُصول مع إضاعة الأصول، فلا يكون دَرَكهم^{١٨} دَرَكًا، ومَن أحرز الأصول^{١٩} اكتفى بها عن الفصول، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل.
فأصلُ الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنب الكبائر وتؤدِّي الفريضة، فالزم ذلك لزوم مَن لا غنى له^{٢٠} عنه طرفة عين، ومَن يعلم أنه إن حُرِمَه هلك، ثم إن قدرت على أن تُجاوَز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل.

^{١٣} ويروى: أقسامها.

^{١٤} أصاب بعض النسخ سقط في الكلمات فورد: «ولا في وجوه الأدب ...» وأما الضروب فجمع ضرب بالفتح وهو الصَّنْف.

^{١٥} ويروى: لغوامض الفطن.

^{١٦} ويروى بإسقاط «قد».

^{١٧} نوع: مفعول لتريد، وقد سقطت جملة الشرط من بعض النسخ.

^{١٨} الدرك محرّكة: إدراك الحاجة، يريد أنهم وإن حصلوا على بعض ما أمَلوا وأدركوا آثاره من علم، لم يكن حقيقًا أن يُسمَى هذا الحصول إدراكًا للحاجة ولا وصولًا للغاية.

^{١٩} حازها.

^{٢٠} يقال: ما له عنه غنى بالكسر ولا مغنى ولا غنية ولا غنيان مضمومتين، ويراد: ما له بد، والمعنى على هذا مستقيم لا غضاضة فيه، وأما الغناء بالفتح ممدودًا فيستعمل ضد الفقر مثل المقصور أيضًا.

وأصلُ الأمرِ في صلاحِ الجسدِ ألاَّ تحملَ عليه من المآكلِ والمشاربِ والباهِ إلاَّ خُفَافًا،^{٢١} ثم إنَّ قدرتَ على أنْ تعلمَ جميعَ منافعِ الجسدِ ومضارِّهِ والانتفاعَ بذلكِ كلُّهُ فهو أفضلُ. وأصلُ الأمرِ في البأسِ والشجاعةِ ألاَّ تُحدِّثَ نفسَكَ بالإدبارِ وأصحابِكَ مقبلونَ على عدوِّهم، ثم إنَّ قدرتَ على أنْ تكونَ أوَّلَ حاملٍ وآخرَ منصرفٍ من غيرِ تضييعٍ للحذرِ^{٢٢} فهو أفضلُ.

وأصلُ الأمرِ في الجُودِ ألاَّ تضنَّ بالحقوقِ على أهلها، ثم إنَّ قدرتَ أنْ تزيدَ ذا الحقِّ على حقِّه، وتطوَّلَ^{٢٣} على من لا حقَّ له فافعلْ، فهو أفضلُ. وأصلُ الأمرِ في الكلامِ أنْ تسلمَ من السَّقَطِ^{٢٤} بالتحفُّظِ، ثم إنَّ قدرتَ على بارعِ الصوابِ فهو أفضلُ.

وأصلُ الأمرِ في المعيشةِ ألاَّ تَبَيَّ^{٢٥} عن طلبِ الحلالِ، وأنَّ تحسُنَ التقديرَ لما تُفيدُ وما تُنفقُ، ولا يغرَّنكَ من ذلكِ سعةٌ تكونُ فيها، فإنَّ أعظمَ الناسِ في الدنيا خطرًا^{٢٦} أحوجُّهم إلى التقديرِ، والملوكُ أحوجُّ إليه من السُّوقَةِ^{٢٧} لأنَّ السُّوقَةَ قد تعيشُ بغيرِ مالٍ، والملوكُ لا قِوامَ^{٢٨} لهم إلاَّ بالمالِ، ثم إنَّ قدرتَ على الرفقِ واللُّطْفِ في الطلبِ والعلمِ بوجوهِ المطالبِ فهو أفضلُ.

^{٢١} كذلك وردت في نسخة الشنقيطي خُفَافًا بالألف بين الفاءين، وزعم صاحب السعادة أحمد زكي باشا أنَّ المعنى معها لا يستقيم، قال: ووردت هذه الكلمة في ش: «خُفَافًا»، وأظن المعنى بها لا يستقيم، ورواها خُفَا بالكسر ومعناه الخفيف، ولو كان يعتمد في تحقيقه على غير ذاكرته، لرأى صاحب القاموس يقول: والخِف بالكسر: الخفيف، والجماعة القليلة وكغراب الخفيف؛ لاستقام المعنى ولاستبان له اللفظ.

^{٢٢} الحذر بالكسر ويحرك «مع الفتح»: التحرز ومجانبة الشيء.

^{٢٣} أصلها تتطوَّل حذفت إحدى التاءين تخفيفًا، ومعناه تمتن، وتروى أيضًا: تطول من الثلاثي المأخوذ من الطول الذي هو المن أيضًا.

^{٢٤} السقط محركة: الخطأ.

^{٢٥} من قولهم وني الرجل في الأمر: فتر وضعف وكلَّ وأعيا.

^{٢٦} الخطر بالتحريك: الشرف وارتفاع القدر والمنزلة.

^{٢٧} السُّوقَةُ بالضم: الرعية من الناس للواحد، والجمع والمذكر والمؤنث، وقد سموا كذلك؛ لأنَّ الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء، وأمَّا السوقي فواحد السوقيين لأهل السوق.

^{٢٨} القِوام بالكسر: نظام الأمر وعماده، وملاكه الذي يقوم به.

قال عبد الله بن المقفع في فضل الأقدمين

وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة، التي لو حنَّكَتْ سِنُّ
كنتَ خليقاً أن تعلمها، وإن لم تُخَبِّرْ عنها، ولكنني قد أحببتُ أن أُقدِّمَ إليك فيها قولاً
لترؤس^{٢٩} نفسك على محاسنها، قبل أن تجري على عادة مساويها، فإن الإنسان قد تَبَدَّرَ
إليه في شبيبته المساوي، وقد يغلب عليه ما بَدَرَ إليه منها للعادة، فإنَّ لترك العادة مئونة
شديدة ورياضةً صعبة.

^{٢٩} من قولهم راض المهر روضاً ورياضة: ذلله وجعله مسخرًا مطيعًا، والمعنى لتكره نفسك على مزاوله
محاسنها.

المقالة الأولى: في السلطان

وفيها بيان

الباب الأول

في آداب السلطان وفيه مطالب

مطلبٌ «في أن صاحب الإمارة لا ينبغي له أن يعني إلا بأعمالها»

إن ابتليت بالسلطان^١ فتعوذ بالعلماء.^٢

واعلم أن من العَجَب^٣ أن يُبتلى الرجل بالسلطان، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله، فيزيدها في ساعات دَعَتِه وفراغه وشهوته وعبثه ونومه. وإنما الرأي له والحق عليه أن يأخذ لعمله من جميع شُغله، فيأخذ له من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه قَدْرَ ما يكونُ به إصلاح جسمه، وتقوية له على إتمام عمله.

^١ السلطان هنا: ولاية أمور الناس والإمارة، وقد وردت باللفظ الأخير في كثير من النُسخ، وأما لفظ السلطان الذي يعرف الآن، فقد استعمل في الإسلام ووضع لقب تفخيم لوزراء الدولة العباسية، ويقول ابن خلدون: إن جعفر بن يحيى — وزير هارون الرشيد — سُمِّي سلطاناً، ويرجح عند المؤرخين أن السلطان لم يكن رتبة رسمية إلا في أواخر القرن الرابع للهجرة؛ إذ سمي به محمود القزنوي بن سبكتكين، ويرون على هذا الرأي أنه أول سلطان في الإسلام بعد أن كانت رتبته أمير الأمراء، ثم صار بعد ملوك الأتراك والأكراد والجراسة وغيرهم من السلاجقة والأيوبيية والمماليك والعثمانيين.

^٢ يقال: تعوذ به: اعتصم ولجأ إليه.

^٣ العجب: إنكار ما يرد عليك، ومما لا ريب فيه أن اشتغال صاحب السلطان بعبثه وشهوته وعنايته بدعته ورفاهيته في ملك، هو أحوج ما يكون إلى تلك الأوقات التي أنفقها في لذائذه، وذلك النصب الذي أضعاه في شهوات نفسه، مما يستفز الدهش ويثير العُجَب.

رأى صاحب السعادة أحمد زكي باشا في تحقيق نسخته، أن الأولى استبدال لفظ العيب بلفظ العجب ليستقيم المعنى، ولكنه رجع آخر الكتاب فارتضى العجب واستقام له المعنى.

وإنما تكون الدّعة^٤ بعد الفراغ.

فإذا تقلّدت شيئاً من أمر السلطان فكن فيه أحد رجلين: إمّا رجلاً مغتبطاً به،^٥ محافظاً عليه مخافة أن يزول عنه.

وإمّا رجلاً كارهاً له مكرهاً عليه، فالكاره عاملٌ في سُخرَةٍ؛ إمّا للملوك إن كانوا هم سلّطوه، وإمّا لله تعالى إن كان ليس فوقه غيره.

وقد علمت أنه من فرط في سُخرَةِ الملوك أهلوكوه، فلا تجعل للهلاك على نفسك سلطاناً ولا سبيلاً.

وإياك — إذا كنت والياً — أن يكونَ من شأنك حبُّ المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك، فتكون ثلّمة^٦ من الثُّم يتقحّمون عليك منها، وباباً يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منك لها.

واعلم أن قابلَ المدح كمداح نفسه، والمرء جديرٌ أن يكون حبه المدح^٧ هو الذي يحمله على رده، فإن الرائد له محمود، والقابل له معيب.

مطلبٌ «فيمن ينبغي للوالي أن ينال رضاه»

لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاث خصال: رضى ربك، ورضى سلطان — إن كان فوقك — ورضى صالح من تلي عليه.

ولا عليك أن تلهو عن المال والذِّكر، فسيأتيك منهما ما يحسنُ ويطيبُ ويكتفى به. واجعل الخصالَ الثلاثَ منك بمكانٍ ما لا بُدَّ^٨ لك منه، واجعل المال والذِّكرَ بمكانٍ ما أنت واجد منه بُدًّا.

^٤ الدّعة: الراحة والخفض.

^٥ مسروراً.

^٦ الثلّمة بالضم: فرجة المكسور والمهدوم والجمع ثلّم.

^٧ المدح مفعول للمصدر الذي هو حبه.

^٨ أي بمكان ما لا مفر لك منه ولا مندوحة عنه.

مطلبٌ «فيمن يجب أن يكونوا بطانة وأصفياء»

اعرف الفضل في أهل الدين والمروءة في كل كورة^٩ وقريّة وقبيلة، فليكونوا هم إخوانك، وأعاونك، وأخذانك، وأصفياءك، وبطانتك، ولطفاءك، وثقاتك، وخُطاءك، ولا تَقْذِفَنَّ في رُوعِك^{١٠} أنك إن استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك؛ فإنك لست تريد الرأي للافتخار به، ولكننا تريده للانتفاع به، ولو أنك مع ذلك أردت الذكر، كان أحسن الذكّرين وأفضلهما عند أهل الفضل والعقل أن يقال: لا يتفرد برأيه دون استشارة ذوي الرأي.

مطلبٌ «في أن رضى الناس غاية لا تُدرِك»

إنك إن تلتمس رضى جميع الناس تلتمس ما لا يُدرِك. وكيف يتفق لك رأي المختلفين؟ وما حاجتك إلى رضى من رضاه الجور، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة؟ فعليك بالتماس رضى الأخيار منهم وذوي العقل؛ فإنك متى تُصِبَ ذلك تضع عنك مئونة ما سواه.

^٩ الكورة بالضم: الصقع، وفي المفردات: قيل لكل مَصْر كورة، وهي البقعة يجتمع فيها قُرى ومحالٌ، «قال أحمد زكي باشا: وذلك من التقاسيم الجغرافية القديمة، مثل الرستاق في بلاد فارس، والمُخْلَف في بلاد اليمن، والجند في بلاد الشام، وكما نقول نحن مديريةية فيما يختص بأرض مصر.» ثم ذكر في الاستدراك آخر الكتاب أن هذا مأخوذ بعرضه عن ياقوت. أمّا ياقوت فإنه قال في «مخالف اليمن» هي بمنزلة الكور والرساتيق، وفي مادة «رستاق» قال: وربما جعل من نواحي كرمان.

وفي «أجناد الشام» بذكر قول أحمد بن يحيى بن جابر: اختلفوا في الأجناد؛ فقيل سمى المسلمون فِلَسْطِينَ جنْدًا؛ لأنه يجمع كورًا، والتجند التجمع، ثم قال أيضًا: ... ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنْدًا برأسه. وقد كان ياقوت جعل قنسرين أحد أجناد الشام الخمسة.

فيستخلص من هذا كله أن حاشية المحقق أحمد زكي باشا قد دخلها السهو، وأن الكورة لا توازي الجند في الشام كما يقول.

^{١٠} الروع بالضم: القلب، وقيل موضع الفرع منه.

مطلبٌ «فيما ينبغي للسلطان نحو أصفياهه وسائر رعيته»

لا تُمكنُ أهل البلاء الحسنَ عندك من التَّدُلُّ ١١ عليك، ولا تُمكننَّ مَنْ سواهم من الاجترأ عليهم والعيب لهم. ١٢
لَتعرفُ رعيَّتكَ أبوابك التي لا يُنال ما عندك من الخير إلاَّ بها، والأبوابَ التي لا يخافُ خائفٌ إلاَّ من قِبَلها.

١١ يقال تدلل عليه: أظهر الجرأة إبهامًا بالمخالفة وليس في نفسه خلاف.

١٢ يريد: ولا تطمع فيهم غيرهم فيجتروا عليهم ويعيبوهم. ذكر الأمير شكيب أن عابَ تتعدى باللام وهو خطأ، والصواب أن يقال عاب الشيء: صار ذا عيب، وعابه: أضاف إليه العيب. وهنا استدرك صاحب السعادة أحمد زكي باشا على هذا الأمير آخر الكتاب وجاء بتحقيق مستفيض، ولكن لنا عليه ملاحظات سترد بعد أن نذكره لك قال: «وإنما احتاج ابن المقفع لاستعمال جملة: «والعيب لهم». لاستخدام لام التقوية التي تأتي بعد المشتقات لضعفها عن العمل بنفسها، ولو قال: «وعيبهم أو وعيبهم إياهم» لكان الكلام صحيحًا، ولكنه راعى المشاكلة مع الجار والمجرور قبله في قوله: «والاجترأ عليهم». فاستعمل والعيب لهم، وهذا من حسن الديباجة وجمال الملاءمة التي يميل إليها بلغاء الكتاب.» اهـ. قول المحقق.

وأما ملاحظتنا؛ فأولاهما: اعتبره هذا المركب جملة، وهو قول ابن المقفع: «والعيب لهم»، وهو بعيد عن تقسيم الجمل التي يعرفها النحوي والبياني والمنطقي. وثانيهما: تعريفه لام التقوية بأنها التي تأتي بعد المشتقات؛ فإن هذا التعبير مما يدلُّ على أنه رأى في لفظ العيب اشتقاقًا، وكذلك يرى الكوفيون: أن المصدر مشتق، ولكن ماذا يرى المحقق في قول الله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ هل يعتقد أن الفعل مشتق أيضًا؟! وهل يعتقد أن اللام جاءت «بعد» مشتق؟!.

ثالثها: أنه جعل قول ابن المقفع غير صحيح، ثم لم يلبث أن جعله من حسن الديباجة وجمال الملاءمة التي يميل إليها بلغاء الكتاب! ولست أدري كيف تكون اللام للتقوية ومن باب المشاكلة، ثم يكون غير صحيح؟! ولعله يريد أن هذا التركيب مما يمنعه الاستعمال المسموع وتجزئه القواعد الموضوعية، فإن كان ذلك يريد فعبارته تحتاج بعدُ إلى بيان أشفى وأوضح.

والحقيقة أن لام التقوية هي الزيدة لتقوية عاملٍ ضعف عن العمل، وذلك إذا تأخر كقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، أو كان العامل فرعًا في العمل، كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وصيغة المبالغة؛ نحو: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾، وأما ذلك التعريف الذي جاء به فلم يرض عنه كوفي ولا بصري.

احرص الحرص كلّه على أن تكون خابراً أمور عمّالك، فإنّ المسيء يفرّق من خُبرتك قبل أن يُصيبه وقَعُك به وعقوبتك، وإنّ المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك.

ليُعرف الناس — فيما يعرفون من أخلاقك — أنك لا تُعاجل بالثواب ولا بالعقاب، فإنّ ذلك هو أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي.

مطلبٌ «في الحثّ على احتمال نصح النصيح وعذله»

عوّد نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة، والتجرّع لمرارة قولهم وعذّلتهم، ولا تُسهّلنّ سبيل ذلك إلّا لأهل العقل والسّنّ والمروءة؛ لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئُ به سفيه أو يستخفُّ به شائن^{١٣}.

مطلبٌ «في أنّ السلطان لا ينبغي له أن يعني بغير الخطير من الرجال والأعمال»

لا تتركّن مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيراً، ولا تُلزم نفسك مباشرة الصغير، فيصير الكبير ضائعاً.

واعلم أنّ مالك لا يُعني الناس كلهم فاخصص به أهل الحق، وأنّ كرامتك لا تُطبق العامّة كلها فتوخّ بها أهل الفضل، وأنّ قلبك لا يتسع لكل شيء ففرّغه للمهم، وأنّ ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وإنّ دأبت فيهما، وأنّ ليس لك إلى إدامة الدأب فيهما سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعّتك.

واعلم أنّ ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بك في المهم، وما صرفت من مالك في الباطل فقدتّه حين تريده للحق، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص عن أهل الفضل، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك عند الحاجة منك إليه.

^{١٣} الشائئ: المبعض.

مطلبٌ «في تحذير السلطان من الإفراط في الغضب والتسرع في الرضى»

اعلم أنَّ من الناس ناسًا كثيرًا^{١٤} يبلغ من أحدهم الغضب — إذا غضب — أن يحمله ذلك على الكُّلُوح^{١٥} والقُطُوب^{١٦} في وجه غير من أغضبه، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له، والعقوبة لمن لم يكن يَهُمُّ^{١٧} بمعاقبته، وشدَّة المعاقبة باللسان واليد لمن لم يكن يُريد به إلاّ دون ذلك، ثم يبلغ به الرضى — إذا رضى — أن يتبرَّع بالأمر ذي الخطر^{١٨} لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويُعطي مَنْ لم يكن يريد إعطائه، ويكرم من لم يرد إكرامه، ولا حقَّ له ولا مودة عنده.

فاحذر هذا الباب الحذر كلُّه! فإنه ليس أحدٌ أسوأ فيه حالاً من أهل السلطان الذين يُفِرطون باقتدارهم في غضبهم، ويتسرَّعهم في رضاهم، فإنه لو وُصِفَ بهذه الصفة مَنْ يُتَبَسُّ بعقله أو يتخبَّطه المسُّ؛^{١٩} أن يُعاقب عند غضبه غير مَنْ أغضبه، ويحبُّ^{٢٠} عند رضاه غير مَنْ أرضاه لكان جائزاً ذلك في صفته.

مطلبٌ «في أنواع الملك»

اعلم أنَّ الملك ثلاثة: مُلك دين، ومُلك حزم، ومُلك هوى.

فأمَّا مُلك الدِّين فإنه إذا أقام للرعية دينهم، وكان دينهم هو الذي يُعطيهم الذي لهم ويُلحق بهم الذي عليهم، أرضاهم ذلك، وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم.

^{١٤} ناس: اسم وُضِع للجمع كالرَهط والقوم، واحده إنسان من غير لفظه، واسم الجمع يعامل معاملة المفرد كما يعامل معاملة الجمع؛ فيقال: ناس كثير كما يقال ناس كثيرون، وقيل: إنه جمع أنس وأصل أناس جمع نادر، وهو ما لم يجر عليه ابن المقفع هنا، وإلا لوجب أن يقول: «ناس كثيرون».

^{١٥} الكلوح بالضم، ومثله الكُّلاح مضمومًا أيضًا مصدر كَلح الوجه كقطع: تكثرت في عبوس، أو عبس فأفرت في تعبسه، وقيل: إنَّ الكلوح في الأصل بدو الأسنان عند العبوس.

^{١٦} القُطُوب مضمومًا والقُطب مفتوحًا: مصدر قطب الرجل كنصر زوى ما بين عينيه وكبح، ويقال زوى ما بين عينيه وما بين عينيه.

^{١٧} من هم بالشيء همًّا، نواه وأراده وعزم عليه وقصده ولم يفعله.

^{١٨} الخطر بالتحريك: عظم الأمر ورفعة شأنه.

^{١٩} المس بالفتح: الجنون، وقد كان العرب يزعمون أنَّ الشيطان يمسه الرجل فيختلط عقله.

^{٢٠} يقال حبا فلانًا كذا، وبكذا: أعطاه، وأمَّا حباه عن كذا فبمعنى منعه.

وَأَمَّا مُلْكُ الْحَزْمِ فَإِنَّهُ يَقُومُ بِهِ الْأَمْرُ وَلَا يَسْلَمُ مِنَ الطَّعْنِ وَالتَّسْخُطِ، وَلَنْ يَضُرَّ طَعْنَ الضَّعِيفِ مَعَ حَزْمِ الْقَوِيِّ.
وَأَمَّا مُلْكُ الْهُوَى فَلَعِبُ سَاعَةٍ وَدَمَارُ دَهْرٍ.

مطلبٌ «في التحذير مما لم يُبَيَّنْ على حزم من أعمال السلطان»

إذا كان سلطانك عند جدّة^{٢١} دولة، فرأيتَ أمرًا استقام بغير رأي، وأعوأنا^{٢٢} أجزوا^{٢٣} بغير نيل، وعملاً^{٢٤} أنجح^{٢٥} بغير حزم، فلا يغرّنك^{٢٦} ذلك ولا تستنيمن^{٢٧} إليه، فإن الأمر الجديد ربّما

٢١ الجِدَّةُ بالكسر فالتشديد: ضد القدم، وأصله من جد الحائك الثوب: قطعه، وجد الثوب صار جديدًا، يريد: في إبان ظهور الدولة ونشأة السلطان.

٢٢ الإجزاء والجزاء: الغناء والكفاية، يقال: جرى عنك وأجزى إذا غني غناءك وكفأك مهمًا من أمرك، والمهموز الذي اختاره ابن المقفع: إنما هو لغة تميم.

٢٣ نجح الأمر وأنجح: قُضِيَ وتيسر، وأنجح فلان في أمره: ظفر به، وأنجح الله حاجتك: قضاها، كل ذلك ثبت في اللغة صحيح في استعمال الفصحاء، وزعم صاحب السعادة أحمد زكي باشا أن هذا الفعل: إن همز اختص بالعقلاء وهو تخصيص غريب لا تعرفه اللغة، ولم يستطع المحقق نفسه أن يثبت عليه، بل اضطر إلى أن يعترف بأن في اللغة أنجحت الحاجة: إذا تيسرت، ثم قال: أمّا أنجح فخاص بالعقلاء، بمعنى فاز وظفر. وهو اضطراب غريب في التخصيص، فإن هذا الاختلاف المعنوي لم ينشأ إلا من اختلاف الإسناد.

ألا ترى أن المحقق نفسه وسائر اللغويين يتفقون على: «أنجحت الحاجة، وأنجحها الله.» مع أن اختلاف الإسناد جعل في الفعلين اختلافًا معنويًا ولفظيًا لا شك فيه؛ أمّا المعنوي فإن إنجاح الحاجة: تيسرها، وإنجاح الله إياها: تيسيره لها، وأمّا اللفظي فظاهر وهو أن أول الفعلين لازم مطاوع لثانيهما المتعدي.

٢٤ المعروف أن نون التوكيد الثقيلة هي كالخفيفة ترد في النظم كما ترد في النثر، وتؤديان وظيفة واحدة، وأن انفرد الخليل بأن التأكيد بالثقيلة عنده أبلغ من التأكيد بالخفيفة، غير أن زكي باشا يذكر في استدركاكه قوله: «ومعلوم أن أكثر استعمال هذه النون — أي الخفيفة — إنما يكون في النظم والأولى أن تكون هنا ثقيلة.» وهو قول ليس بوجيه؛ لأن النون الخفيفة كثيرًا ما وردت في المنثور، إلا أنها في المنظوم أبين لمساعدة الوزن على توضيحها، بخلاف المنثور الذي قلّ فيه الضبط، فلم تعلم فيه الخفيفة من الثقيلة، على أنهما وردتا في التنزيل، قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَيْتُنَّ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَجَنَّ وَليَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾، وعندني أن النون الخفيفة في هذه الآية قد أدّت وظيفة الثقيلة من تأكيد الوعيد، بالرغم مما قيل في هذه الآية من أن الخفيفة ما اكتسبت هذا التأكيد إلا من الثقيلة قبلها، يؤيد ذلك قوله تعالى:

يكون له مهابةٌ في أنفس أقوام، وحلاوةٌ في قلوب آخرين، فيُعيُن قومٌ على أنفسهم ويعين قومٌ بما قبلكم، ويَسْتَبْتُبُ ذلك الأمر غيرَ طويلٍ، ثم تصير الشئون إلى حقائقها وأصولها. فما كان من الأمور بُني على غير أركانٍ وثيقة ولا دعائمٍ مُحكمة، أو شك أن يتداعى ويتصدع.

لا تكوننَّ نَزْر الكلام والسلام، ولا تبلغنَّ بهما إفراط الهشاشة والبشاشة، فإنَّ إحداهما من الكبَر والأخرى من السُخْف.

مطلبٌ «في حُصَّ السلطان على التوثق من رأي الأعوان قبل الإقدام»

إذا كنت إنما تضبط أمورك وتصلو على عدوك بقومٍ لست منهم على ثقة من دين ولا رأي ولا حفاظٍ^{٢٥} من نيّة، فلا تفعلْ نافلةً^{٢٦} حتى تحملهم — إن استطعت — على الرأي والأدب الذي بمثله تكون الثقة، أو تستبدل بهم إن لم تستطع نقلهم إلى ما تريد، ولا تعرّك قوتك

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لِنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ﴾، ومعلوم أنَّ هذه الآية نزلت في أبي جهل؛ إذ حلف بالللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷺ يصلي ليطأن على رقبتة، وليعفرن وجهه، فجاء رسول الله ﷺ وهو يصلي، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه وينفي يديه، فقيل له في ذلك، فقال: إن بيني وبينه لخدقاً من نار وهولاً وأجنحة، إلى آخر ما ورد مما هو مشهور، فالمقام مقام ردع وزجر ووعيد، ومعنى لنسفعا بالناصية: لناخذن بناصيته ولنسحبن بها إلى النار يوم القيامة، فأدت الخفيفة هنا وظيفة الثقيلة أيضاً، فإن قيل: إنَّ تأكيد التهديد والوعيد قد اكتسب أيضاً من كلمة «كلا» قبلها، كان هذا غير مقبول أيضاً؛ لورودها في بعض القراءات بالثقيلة، فقد قرأ محبوب وهارون وكلاهما عن أبي عمرو «لنسفعن» بالنون الشديدة، وقرأ ابن مسعود «لأسفعن» كذلك مع إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وحده.

فتبين الآن أنَّ الخفيفة تؤدي ما تؤديه الثقيلة، وقد تقوم مقامها ولا وجه إذن للأولوية التي ذكرها المحقق في نسخته، على أن ابن المقفع راعى في ذلك كله الأسلوب وانبساط النفس الذي يجري مع الخفيفة، ويسلس في هذا التركيب.

^{٢٥} أصل الحفاظ: الذود عن المحارم، يريد: إن لم تثق ممن تصلو بهم على عدوك بأن نودهم عنك ومساعدتهم إياك صادر عن بصيرة ونية ...

^{٢٦} رويت: فلا تفعل نافلة، والنافلة: ما يفعله الإنسان مما ليس بواجب عليه، ولست أجد لها معنى يتفق مع سابقها ولحقها، وكذلك وردت: فلا تنفك نافعة، وهذه الرواية كسابقتها لا تنفع غلة ولا تشفي علة. وأما نحن فقد رجحنا أنها: فلا تنفك داعية، وتحريف «نافعة» عن «داعية» سهل وقريب، والمعنى على ذلك بيِّن لا شبهة فيه، يريد: إن لم تكن على ثقة من دخيلة أعوانك فلا تزل فيهم داعية تبرر رأيك، وتدعم حجتك، وتقوي عقيدتك حتى تحملهم على أن يكونوا موضعاً لثقتك.

بهم على غيرهم، فإِنَّمَا أَنْتَ فِي ذَلِكَ كَرَائِبِ الْأَسَدِ الَّذِي يَهَابُهُ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ، وَهُوَ لِمَرْكَبِهِ أَهْيَبٌ.

مطلبٌ «في تحذير السلطان من أمّات الرذائل: الغضب والكذب والبخل وكثرة الحلف»

ليس للملِكِ أَنْ يَغْضَبَ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِ.
وليس له أَنْ يَكْذِبَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى اسْتِكْرَاهِهِ عَلَى غَيْرِ مَا يَرِيدُ.
وليس له أَنْ يَبْخُلَ؛ لِأَنَّهُ أَقَلُّ النَّاسِ عِذْرًا فِي تَخَوُّفِ الْفَقْرِ.
وليس له أَنْ يَكُونَ حَقُودًا؛ لِأَنَّ خَطْرَهُ^{٢٧} قَدْ عَظُمَ عَنْ مَجَارَاةِ كُلِّ النَّاسِ.
وليس له أَنْ يَكُونَ حَلْفًا؛ لِأَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاتِّقَاءِ الْإِيمَانِ الْمُلُوكَ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُ الرَّجُلُ عَلَى الْحَلْفِ إِحْدَى هَذِهِ الْخِصَالِ: إِمَّا مَهَانَةً^{٢٨} يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ، وَصَرَخٌ^{٢٩} وَحَاجَةٌ إِلَى تَصْدِيقِ النَّاسِ إِيَّاهُ.
وإِمَّا عِيٌّ^{٣٠} بِالْكَلَامِ، فَيَجْعَلُ الْإِيمَانَ لَهُ حَشْوًا وَوَصْلًا.
وإِمَّا تَهْمَةً قَدْ عَرَفَهَا مِنَ النَّاسِ لِحَدِيثِهِ، فَهُوَ يُنْزِلُ نَفْسَهُ مِنْزَلَةً مَنْ لَا يَقْبَلُ قَوْلَهُ إِلَّا بَعْدَ جَهْدِ الْيَمِينِ^{٣١}.
وإِمَّا عَبَثٌ^{٣٢} بِالْقَوْلِ وَإِرْسَالِ اللِّسَانِ عَلَى غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا حُسْنِ تَقْدِيرٍ، وَلَا تَعْوِيدٍ لَهُ قَوْلِ^{٣٣} السَّدَادِ وَالتَّنَثُّبِ.

وربما قيل في هذا التحريف: «فلا تنفعك نافعة.» وهذه الجملة مع قربها وإمكان موافقتها لا يزال فيها شيء من خفاء.

^{٢٧} يريد: لأن عظم قدره ورفعة شأنه تأبى عليه أن يجاري الناس في رذائلهم.

^{٢٨} المهانة: المذلة.

^{٢٩} الضرع محرّكة: الضعف وهو مصدر ضرع كفرح لغة في ضرع إليه كقطع ومصدره ضراعة.

^{٣٠} العيُّ بالكسر: مصدر عي الرجل بأمره، وعن أمره وعيي بالفك، والإدغام أكثر، والفعل كعلم والمعنى لم يهتد إلى وجه مراده أو عجز ولم يطق أحكامه.

^{٣١} أي بُعد المبالغة في اليمين.

^{٣٢} العبث محرّكة: اللغو.

^{٣٣} قول: مفعول ثانٍ لتعويد؛ لأنه ينصب مفعولين.

مطلبٌ «في أن لا عيب على المَلِكِ أن يلهو إذا وثق من تدبير ملكه»

لا عيب على المَلِكِ في تعيُّشه وتنعمه ولعبه ولهوه، إذا تعاهد^{٣٤} الجسيم من أمره بنفسه، وأحكم المهمَّ، وفوَّض ما دُون ذلك إلى الكُفَاة. ^{٣٥}

مطلبٌ «في أن أحق الناس باتهام نظره بعين الريبة السلطان»

كلُّ أحد حقيق — حين ينظر في أمور الناس — أن يتَّهَمَ نظره بعين الريبة،^{٣٦} وقلبه بعين المقت،^{٣٧} فإنهما يُرَيِّنان الجور،^{٣٨} ويحملان على الباطل، ويُقَبِّحان الحسن، ويُحَسِّنَان القبيح.

وأحق الناس باتهام نظره بعين الريبة وعين المقت؛ السلطان الذي ما وقع في قلبه ربا^{٣٩} مع ما يُقْبِضُ له من تزيين القرناء والوزراء.

وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل في النظر والقول والفعل؛ الوالي الذي ما قال أو فعل كان أمرًا نافذًا غير مردود.

ليعلم الوالي أن الناس يَصِفُونَ الوَلاةَ بسوءِ العهد ونسيان الوُدِّ، فليُكَايِرِ نقض قولهم، وليُبْطِلِ عن نفسه وعن الوَلاةِ صفاتِ السوءِ التي يُوصِفُونَ بها.

مطلبٌ «في حض السلطان على الإمعان في تفقد أمر رعيته»

حقُّ الوالي أن يتفقد لطيف أمور رعيته، فضلًا عن جسيمها، فإنَّ لِلطَّيْفِ موضِعًا يَنْتَفِعُ به، وللجسيم موضِعًا لا يَسْتغْنِي عنه.

^{٣٤} يقال تعاهد الشيء وتعهدّه: تفقده.

^{٣٥} الكفاة: جمع كافٍ وهو ما يكفيك.

^{٣٦} الرّيبة بالكسر: الشك كالرّيب بالفتح.

^{٣٧} المقت: البُغْضُ والكرَاهة مصدر مَقَتَ كَنَصَرَ.

^{٣٨} الجور: الظلم وتجاوز الحد، مصدر جار كقال.

^{٣٩} ربا يربو: زاد كما ينمو.

لِيَتَفَقَّدَ الْوَالِي — فيما يتفقد من أمور رعيته — فاقعة^{٤٠} الأخيـار والأحرار منهم، فليعمل في سدّها، وطغيان السفلة منهم فليقمعه^{٤١} وليستوحش^{٤٢} من الكريم الجائع واللئيم الشبعان، فإنما يصول الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

مطلبٌ «فيما ينبغي للوالي أن يتخلّى عنه»

لا ينبغي للوالي أن يحسدّ الولاة إلا على حسن التدبير. ولا يحسدنّ الوالي من دونه، فإنه أقلُّ في ذلك عذرًا من السوقة التي إنما تحسدُّ من فوقها، وكلُّ لا عذر له. لا يلومنّ الوالي على الزلّة من ليس بمتممّ عنده في الحرص على رضاه إلا لومٌ أدبٍ وتقويم، ولا يعدلنّ بالمجتهد في رضاه البصير بما يأتي أحدًا. فإنهما إذا اجتمعا في الوزير والصاحب نام الوالي واستراح، وجلبت إليه حاجاته، وإن هدا عنها، وعمل له فيما يهّمه وإن غفل. لا يؤلّعنّ الوالي بسوء الظنّ لقول الناس، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيبًا موفورًا يروح^{٤٣} به عن قلبه ويصدر^{٤٤} عنه في أعماله. لا يضيّعنّ الوالي التثبّت عندما يقول، وعندما يعطي، وعندما يعمل. فإن الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام، وإنّ العطيّة بعد المنع أجمل من المنع بعد الإعطاء، وإنّ الإقدام على العمل بعد التأمّن فيه أحسن من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه.

وكل الناس محتاجٌ إلى التثبّت.

وأحوجهم إليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافعٌ، وليس عليهم مستحّتٌ.

^{٤٠} الفاقعة: الحاجة والفقـر.

^{٤١} يريد فليصرفه عنه.

^{٤٢} استوحش: ضد استأنس، يريد: لا تؤمن له ولا تستسلم إليه.

^{٤٣} يخفف به عن نفسه وينفّس عن قلبه.

^{٤٤} يقال أصدرت في الأمر عن رأيٍ حازم؛ أي مضيت فيه بتثبّتٍ ورويّة، ونظن لفظ «في» سقط من

الناسخ في بعض النسخ.

مطلبٌ «في حثِّ السلطان على الأخذ بالدين والبرِّ والمروءة»

ليعلم الوالي أنَّ من الناس حُرصاءَ على زِيَّهٍ^{٤٥} إلاَّ مَنْ لا بال له،^{٤٦} فليكن للدين والبرِّ والمروءة عنده نفاق،^{٤٧} فيكسِدُ^{٤٨} بذلك الفُجُورَ والدناءةَ في آفاق الأرض.

مطلبٌ «فيما يحتاج إليه الوالي من الآراء»

جماعٌ^{٤٩} ما يحتاج إليه الوالي من أمر الدنيا رآيان: رأيٌ يُقَوِّي به سلطانه، ورأيٌ يُزَيِّنُه في الناس.

ورأي القوة أحقهما بالبُداء وأولاهما بالآثرة.^{٥٠}
ورأي التزيين أحضرهما حلاوةً وأكثرهم أعاوناً.
مع أنَّ القوَّة من الزينة، والزينة من القوة، ولكنَّ الأمر يُنسَب إلى مُعْظَمِه وأصله.

^{٤٥} أي حريصين على أن يشبهوه في أعماله ويقتدروا به في أفعاله.

^{٤٦} البال: الخطر ويريد: إلاَّ من لا همة له ولا خطر.

^{٤٧} النِّفاق: الرواج.

^{٤٨} يريد: فيقال بذلك ...

^{٤٩} جماع الشيء بالكسر: جمعه.

^{٥٠} الأثرة بالتحريك: الاختيار واختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره.

الباب الثاني

في صحبة السلطان

مطلبٌ «في تحذير مصاحب السلطان أن يغتر باستئناسه»

إِنْ ابْتُلِيَتْ بِصَحْبَةِ السُّلْطَانِ فَعَلَيْكَ بِطَوْلِ الْمَوَاطِبَةِ فِي غَيْرِ مَعَاتِبَةٍ، وَلَا يُحْدِثَنَّ لَكَ الْاِسْتِنَاسُ بِهِ غَفْلَةً وَلَا تَهَاوُنًا.

إِذَا رَأَيْتَ السُّلْطَانَ يَجْعَلُكَ أَخًا فَاجْعَلْهُ أَبًا، ثُمَّ إِنْ زَادَكَ فَزِدْهُ.

إِذَا نَزَلْتَ مِنْ ذِي مَنْزِلَةٍ أَوْ سُلْطَانٍ، فَلَا تَرَيَنَّ أَنَّ سُلْطَانَهُ زَادَكَ لَهُ تَوْقِيرًا وَإِجْلَالًا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَكَ وَدًّا وَلَا نَصْحًا، وَأَنْكَ تَرَى حَقًّا لَهُ التَّوْقِيرَ وَالْإِجْلَالَ، وَكَانَ فِي مَدَارَاتِهِ وَالرَّفْقَ بِهِ كَالْمَوْتَنَفِ^١ مَا قَبْلَهُ، وَلَا تُقَدِّرِ الْأَمْرَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَلَى مَا كُنْتَ تَعْرِفُ مِنْ أَخْلَاقِهِ، فَإِنَّ الْأَخْلَاقَ مُسْتَحِيلَةَ مَعَ الْمَلِكِ، وَرَبْمَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ الْمُدِلَّ عَلَى ذِي السُّلْطَانِ بِقَدَمِهِ قَدْ أَضَرَ بِهِ قَدَمَهُ.

إِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تَصْحَبَ مَنْ صَحِبْتَ مِنَ الْوَلَاةِ إِلَّا عَلَى شُعْبَةٍ^٢ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ مَوَدَّةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّ أَخْطَاكَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَعْمَلُ عَلَى السُّخْرَةِ^٣.
إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَجْعَلَ صُحْبَتَكَ لِمَنْ قَدْ عَرَفَكَ بِصَالِحِ مُرُوءَتِكَ وَصِحَّةِ دِينِكَ وَسَلَامَةِ أُمُورِكَ قَبْلَ وِلَايَتِهِ فَافْعَلْ.

^١ المستأنف.

^٢ الشعبة: الطائفة من كل شيء.

^٣ السخرة: ما سخرت من خادم ودابة بلا أجر ولا ثمن.

فإنَّ الوالي لا عِلْمَ له بالناس إلا ما قد عِلِمَ قبل ولايته، أمَّا إذا ولي فكلُّ الناس يلقاه بالتزيُّن والتصنُّع،^٤ وكلهم يحتال لأنَّ يثَنَّى عليه عنده بما ليس فيه، غير أنَّ الأندال والأردال هم أشدُّ لذلك تصنُّعًا وأشدُّ عليه مثابرة وفيه تمحُّلاً. فلا يمتنع الوالي — وإن كان بليغ الرأي والنظر — من أن يَنْزِلَ عنده كثيرٌ من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثيرٌ من الخانة^٥ بمنزلة الأُمَنَاء، وكثيرٌ من الغَدْرَةِ^٦ بمنزلة الأوفياء، ويَعْطَى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التمحُّل والتصنُّع.

مطلبٌ «في تحذير أثير السلطان من إكثار ألفاظ الملق»

إذا عرَفَتَ نفسك من الوالي بمنزلة الثقة، فاعزل عنه كلام الملق، ولا تُكثِرَنَّ من الدعاء له في كل كلمة، فإنَّ ذلك شبيهٌ بالوَحْشَةِ والغُرْبَةِ، إلا أن تكلمه على رعوس الناس، فلا تَأُلُّ عمَّا عَظَّمَهُ ووقَّره.

مطلبٌ «في الحذر من أن يظن الوالي بك مشايعة الهوى»

لا يعرفنك الولاة بالهوى في بلدٍ من البلدان، ولا قبيلة من القبائل، فيُوشِكُ أن تحتاج فيهما إلى حكاية أو شهادة، فتنتهم في ذلك. فإذا أردت أن يُقْبَلَ قولك فصحَّ رأيك ولا تُشَوِّبَنَّه^٧ بشيء من الهوى، فإن الرأي الصحيح يقبله منك العدو، والهوى يردُّه عليك الولد والصديق. وأحقُّ من احتَرَسَتَ من أن يظنَّ بك خلطَ الرأي بالهوى الولاة، فإنَّها خديعة وخيانة وكفرٌ عندهم.

^٤ يقال تصنع الرجل: تكلف حُسن السمات والتزيين، وأظهر عن نفسه فعلاً ليس فيه.

^٥ الخانة: جمع خائن كما يجمع أيضاً على خونة وخائنين.

^٦ الغدرة كفجرة، جمع غادر كفاجر، وهو الذي انبعث في المعاصي ففسق وزنى.

^٧ أي لا تخلطه بشيء من الهوى.

مطلبٌ «في التنفير من صحبة والٍ لا يريد صلاح رعيته»

إنَّ ابْتُلِيَتْ بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيته، فاعلم أنك قد خُيرتَ بينَ حَلَّتَيْنِ^٨ ليسَ منهما خيار: إمَّا الميل مع الوالي على الرعيَّة، وهذا هلاك الدِّين. وإمَّا الميل مع الرعيَّة على الوالي، وهذا هلاك الدنيا. ولا حيلةَ لك إلا الموتُ أو الهَرَب.

واعلم أنه لا ينبغي لك — وإن كان الوالي غير مرضيِّ السيرة إذا عَلِقَتْ حبالُك بحباله — إلا المحافظة عليه، إلا أنْ تجدَ إلى الفراق الجميل سبيلاً.

تَبَصَّرَ ما في الوالي من الأخلاق التي تُحِبُّ له والتي تَكْرَهُ، وما هو عليه من الرأْي الذي تَرْضَى له والذي لا تَرْضَى، ثم لا تُكَابِرَنَّه بالتحويل له عما يُحِبُّ ويَكْرَهُ إلى ما تُحِبُّ وتَكْرَهُ، فإنَّ هذه رياضة صعبة تحمِلُ على التناهي والِقَلَى.

فإنك قلَّما تقدرُ على ردِّ رجلٍ عن طريقةٍ هو عليها بالمكابرة والناقضة، وإن لم يكن ممن يجمَحُ به عزُّ السلطان، ولكنك تقدر على أن تُعينه على أحسن رأيه، وتُسَدِّده فيه وتُرَيِّنه، وتُقَوِّيه عليه، فإذا قَوِيَتْ منه المحاسنُ كانت هي التي تكفيك المساوئ، وإذا استحكمتُ منه ناحية من الصواب كان ذلك الصواب هو الذي يُبصِّره مواقع الخطأ بألطف من تبصيرك، وأعدل من حُكمك في نفسه، فإنَّ الصوابَ يُؤيِّد بعضُه بعضاً، ويدعو بعضه إلى بعض حتى تستحکم لصاحبه الأشياء، ويظهرَ عليها بتحكيم الرأْي، فإذا كانت له مكانةٌ من الأصالة اقتلع ذلك الخطأ كلُّه. فاحفظ هذا البابَ وأحْكِمه.

مطلبٌ «فيما ينبغي لطالب الحاجة لدى السلطان»

لا يكوننَّ طلبُك ما عند الوالي بالمسألة،^٩ ولا تستبطئه وإنَّ أبطأ عليك،^{١٠} ولكن اطلب ما قبَله بالاستحقاق له، واستأن به^{١١} وإن طالَّت الأناة منه، فإنك إذا استحققتَه أتاك عن غير طلب، وإن لم تستبطئه كان أعجل له.

^٨ الخلة بالفتح: الخصلة.

^٩ السؤال.

^{١٠} يقال أبطأ عليه بالأمر: أخره.

^{١١} من استأنى بالأمر: انتظره.

مطلبٌ «في تحذير صاحب السلطان من الإدلال عليه»

لا تُخبرنَّ الوالي أنَّ لك عليه حقًا، وأنك تعتدُّ عليه ببلاءٍ، وإنَّ استطعت ألا ينسى حَقَّك وبلاءك فافعل، وليكن ما يُدكِّره به من ذلك تجديدك له النصيحة والاجتهاد، وألا يزال ينظرُ منك إلى آخر يُدكِّره أوَّلَ بلائك.

واعلم أنَّ السلطان إذا انقطع عنه الآخرُ نسي الأوَّل، وأنَّ الكثير من أولئك أرحامهم مقطوعةٌ وحبالهم مصرومة، إلاَّ عمَّن رضوا عنه وأغنى عنهم^{١٢} في يومهم وساعتهم.

مطلبٌ «في تحذير صاحب السلطان من التعتُّب عليه والاستزراء له»

إياك أن يقعَ في قلبك تعتُّبٌ^{١٣} على الوالي أو استزراءً له.

فإنه إن وقعَ في قلبك بدًا في وجهك إن كنتَ حليمًا، وبدا على لسانك إن كنتَ سفيهًا. فإن لم يزدْ ذلك على أن يظهرَ في وجهك لآمنِ الناسَ عندك، فلا تأمننَّ أن يظهرَ ذلك للوالي.

فإنَّ الناسَ إلى السلطان بعُورات الإخوان سِراعٍ، فإذا ظهرَ ذلك للوالي كان قلبه هو أسرعَ إلى النفور والتغيُّر من قلبك، فَمَحَقْ ذلك حسناتك الماضية، وأشرف بك على الهلاك، وصرت تعرفَ أمرَك مستدبرًا، وتلتئمِس مرضاة سلطانك مستصعبًا، ولو شئتَ كنتَ تركته راضيًا وازددتَ من رضاه دُنُوًا.

مطلبٌ «في حض الوزير على الحذر من أعدائه والترويح عن نفسه»

اعلم أنَّ أكثرَ الناس عدوًّا جاهدًا حاضرًا جريئًا واشيًّا وزيرُ السلطان ذو المكانة عنده؛ لأنه منفوسٌ عليه^{١٤} مكانه بما يُنفسُ على صاحب السلطان، ومحسودٌ كما يُحسد، غير

^{١٢} أي أجزأ وقام مقامهم.

^{١٣} التعتُّب: تخاطب الإدلال، وفلان لا يتعتب عليه في شيء؛ أي لا يعاب، ومن هنا أراد ابن المقفع.

^{١٤} محسود عليه.

أنه يُجترأ عليه، ولا يُجترأ على السلطان؛ لأنَّ من حاسديه أحياء^{١٥} السلطان وأقاربه الذين يشاركونه في المداخل والمنازل، وهم وغيرهم من عدوه الذين هم حُضَّارُه، ليسوا كعدو السلطان النَّائِي عنه والمُكْتَتِمِ منه، وهم لا ينقطع طمعهم من الظفر به، فلا يَغْفُلُونَ عن نَصْبِ الحبائل له.

فاعرف هذه الحال، والبس لهؤلاء القوم — الذين هم أعداؤك — سلاح الصحة والاستقامة، ولزوم المحجة فيما تُسرُّ وتُعْلِنُ، ثم رُوِّح عن قلبك حتَّى كأنك لا عدو لك ولا حاسد.

وإن ذَكَرَكَ ذَاكِرٌ عند السلطان بسوءٍ في وجهك أو في غَيْبَتِكَ، فلا يَرِيَنَّ السلطان ولا غيره منك اختلاطاً لذلك، ولا اغتياظاً، ولا ضجرًا، ولا يَقَعَنَّ ذلك في نفسك موقع ما يَكْرِهُكَ،^{١٦} فإنه إن وقع منك ذلك الموقع أدخل عليك أمورًا مشتبهة بالرَّيبية، مُذْكَرَةٌ لما قال فيك العائبُ، وإن اضطرَّكَ الأمرُ في ذلك إلى الجواب فإيَّاك وجواب الغضب والانتقام، وعليك بجواب الحجة في حلمٍ ووقار. ولا تَشْكَنَّ في أن الغلبة والقوة للحليم أبدًا.

مطلبٌ «في حض الوزير على التحفظ في القول والحرص على الإجابة»

لا تتكلمَنَّ عند الوالي كلامًا أبدًا إلا لعناية، أو يكون جوابًا لشيء سئلت عنه، ولا تُحْضِرَنَّ عند الوالي كلامًا أبدًا لا تُعْنَى به أو تُؤْمَرُ بحضوره. ولا تُعِدَّنَّ شتم الوالي شتمًا، ولا إغلاظه إغلاظًا، فإن ربح العزة قد تبسط اللسان بالغلظة في غير سخط ولا بأس.

^{١٥} كذلك وردت بالباء المشددة في أكثر النسخ، ولكن زكي باشا عدل عنها إلى «أحياء» بالتحية، زاعمًا أنَّ الأحياء لا يتقدمون في الذكر على الأقارب، وأمَّا نحن فإننا نرى الأحياء في أول مراتب الذكر، ولا سيما لدى السلطان الذي لا يخفى على أحد ما يكتنه الأهل والأقارب له.

^{١٦} يضجرك ويحزنك.

مطلبٌ «في مجانبة المسخوط عليه من السلطان حتى يتوب فتشفع له»

جانب المسخوط عليه والظنين^{١٧} به عند السلطان، ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل، ولا تُظهرن له عُذراً، ولا تُثَبِّنَ عليه خيراً عند أحد من الناس. فإذا رأيتَه قد بَلَغَ من الإِعتاب^{١٨} مما سُخِطَ عليه فيه ما ترجو أن تُثَلِّينَ له به قلب الوالي، واستيقنت أن الوالي قد استيقن بمباعدتك إياه وشدتك عليه عند الناس، فضع عُذره عند الوالي وأعمل في إرضائه عنه في رفقٍ ولطفٍ.

مطلبٌ «في خضوع الوزير للسلطان إلا فيما يكرهه الدين والعرض والمروءة»

ليعلم الوالي أنك لا تستنكف عن شيء من خدمته، ولا تدع مع ذلك أن تُقدِّمَ إليه القول — على بعض حالات رضاه وطيب نفسه — في الاستعفاء من الأعمال التي هي أهلُّ أن يكرهها ذو الدين، وذو العقل، وذو العرض، وذو المروءة؛ من ولاية القتل والعذاب وأشباه ذلك.

وإذا أصبتَ الجاهَ والخاصة عند السلطان، فلا يُحدِثَنَّ لك ذلك تغيراً على أحد من أهله وأعوانه، ولا استغناء عنهم؛ فإنك لا تدري متى ترى أدنى جفوة أو تغير فتدلل لهم فيها.

وفي تلؤن الحال عند ذلك من العار ما فيه.

ليكن مما تُحكِّمُ من أمرك ألا تسارَّ أحدًا من الناس، ولا تهمس إليه بشيء تُخفيه على السلطان أو تُعلنه، فإنَّ السَّرارَ مما يُخيلُ إلى كل من رآه من ذي سلطان أو غيره أنه المرادُ به، فيكون ذلك في نفسه حسيكة^{١٩} ووغراً وثُقلاً.

^{١٧} الظنين: المتهم من الظنة بالكسر وهي التهمة.

^{١٨} من قولهم أعتبني فلان، إذا عاد إلى مسرتي راجعاً عن الإساءة.

^{١٩} الحسيكة: الحقد والعداوة، وأمَّا الوغر فشدة الغيظ، من الوغرة التي هي شدة توقد الحر.

مطلبٌ «في تجنب الكذبة وتنكب التظاهر بالعمل لدى السلطان»

لا تتهاوننَّ بإرسال الكذبة عند الوالي أو غيره في الهزل، فإنها تُسرِع في إبطال الحق وردَّ الصدق مما تأتي به.

تنكَّب^{٢٠} فيما بينك وبين السلطان، وفيما بينك وبين الإخوان؛ خُلُقًا قد عرفناه في بعض الوزراء والأعوان وأصحاب الأبّهات في ادعاء الرجل — عندما يظهر من صاحبه حُسن أثر أو صواب رأي — أنه عمِل في ذلك وأشار به، وإقراره بذلك إذا مدحه به مادحٌ، وإن استطعت أن تُعرِّف صاحبك أنك تَنحَلُهُ^{٢١} صوابَ رأيك — فضلًا عن أن تدَّعي صوابه — وتسنِّد ذلك إليه وتزيِّنه به فافعل. فإن الذي أنت آخذ بذلك أكثرُ مما أنت مُعطٍ بأضعاف.

مطلبٌ «في التحذير من الإجابة عن سؤال وجه إلى غيرك»

إذا سأل الوالي غيرك فلا تكوننَّ أنت المُجيبَ عنه، فإن استلبك الكلامَ خِفةً بك واستخفافًا منك بالمستؤل وبالسائل.

وما أنت قائل؟ إن قال لك السائل: ما إياك سألت، أو قال لك المستؤل عند المسألة يُعادُ له بها: دونك فأجب.

وإذا لم يقصد السائل في المسألة لرجل واحد وعمَّ بها جماعة من عنده، فلا تُبادرنَّ بالجواب، ولا تُسابق الجلساء، ولا تُواثِبْ بالكلام مواثبةً؛ فإن ذلك يجمع مع الشين التكلّف والخفة.

فإنك إذا سبقت القومَ إلى الكلام صاروا لكلامك خُصَمَاءً فتعقبوه بالعيب والطعن، وإذا أنت لم تعجل بالجواب وخليته للقوم، اغترّضت أقاويلهم على عينك، ثم تدبّرتها وفكرت فيما عندك، ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جوابًا رضيًا، ثم استدبرت به أقاويلهم حين تصيحُ إليك الأسماع ويهدأ عنك الخصوم.

وإن لم يبلُغك الكلام حتى يُكتفى بغيرك، أو ينقطع الحديث قبل ذلك، فلا يكون من العيب عندك ولا من العُبن في نفسك قوتُ ما فاتك من الجواب.

^{٢٠} أي تجنب.

^{٢١} من قولهم نحلته القول: أضفته إليه دون أن يكون له فيه أثر.

فإنَّ صيانةَ القولِ خيرٌ من سوءِ وضعه، وإنَّ كلمةً واحدةً من الصَّوابِ تُصيبُ موضِعها خيرٌ من مائةِ كلمةٍ تقولها في غيرِ فُرصِها وموضعها، مع أنَّ كلامَ العجلةِ والبدارِ مُوكَّلٌ به الزَّللُ وسوءُ التقديرِ، وإنَّ ظنَّ صاحِبُه أنه قد أتقنَ وأحكمَ. واعلم أنَّ هذه الأمور لا تُدرَك ولا تُمَلِك إلاَّ برُحِبِ الدَّرْعِ عند ما قيل وما لم يُقَل، وقِلَّةِ الإِعظامِ لما ظهر من المُروءةِ وما لم يَظْهَر، وسَخاوَةِ النفسِ عن كثيرٍ من الصَّوابِ؛ مخافةُ الخِلافِ ومخافةُ العِجْلةِ ومخافةُ الحسدِ ومخافةُ المِرءاءِ.

مطلبٌ «في آداب الاستماع»

إذا كَلَّمك الوالي فأصغِ إلى كلامه، ولا تَشغَل طَرْفَكَ^{٢٢} عنه بنظرٍ إلى غيره، ولا أطرافك^{٢٣} بعملٍ، ولا قلبك بحديثِ نفسٍ. واحذر هذه الخصلة من نفسك، وتعاهدْها بجهدك.

مطلبٌ «في حثِّ الوزير على مصانعة نظرائه»

ارْزُقْ بِنُظرائك من وزراء السلطان وأخلائه ودُخلائه، واتَّخِذْهم إخواناً ولا تتَّخِذْهم أعداءً، ولا تنافسْهم في الكلمة يتقربون بها، أو العمل يُؤمرون به دونك. فإنَّما أنت في ذلك أحدُ رجلين: إمَّا أن يكونَ عندك فضلٌ على ما عند غيرك، فسوف يبدو ذلك ويحتاج إليه ويلتمسُ منك، وأنت مُجْمَلٌ. وإمَّا ألا يكونَ ذلك عندك، فما أنت مصيبٌ من حاجتك عند وزراء السلطان بمُقاربتك ومُلاءمتك إيَّاهم ومُلايبتك. وما أنت واحدٌ في موافقتك إيَّاهم ولينك لهم من موافقتهم إياك ولينهم لك، أفضل ممَّا أنت مُدرِكٌ بالمنافسةِ والمنافرةِ لهم. لا تَجْتَرِئَنَّ على خِلافِ أصحابك عند الوالي؛ ثِقَّةً باعترافهم لك ومعرفتهم بفضل رأيك.

^{٢٢} الطرف: العين.

^{٢٣} جمع طَرْفٍ بفتحين، وهو من البدن اليدين والرجلان والرأس.

فإنَّنا قد رأينا الناس يعترفون بفصل الرجل وينقادون له ويتعلَّمون منه، وهم أخلِيَاءٌ،^{٢٤} فإذا حضروا السلطان لم يرضَ أحدٌ منهم أن يُقرَّ له، ولا أن يكون له عليه في الرأي والعلم فضلٌ، فاجترأوا عليه بالخلاف والنقض.^{٢٥}

فإن ناقضهم صار كأحدهم، وليس بواجبٍ في كل حين سامعاً فهماً أو قاضياً عدلاً. وإن تَرَكَ مناقضتهم كان مغلوبَ الرأي مردودَ القول.

مطلبٌ «في تحذير جليس السلطان من الاستئثار بصحبته»

إذا أصبَت عند السلطان لُطْفَ منزلة؛ لغناء^{٢٦} يَجِدُه عندك أو هوَى يكون له فيك، فلا تَطْمَحَنَّ كُلَّ الطَّمَّاحِ، ولا تُزَيِّنَنَّ لك نفسُك المزايلة^{٢٧} له عن أليفه وموضع ثقته وسرِّه قَبْلَكَ؛ تريد أن تقلعه وتُدْخِلَ دونه، فإنَّ هذه حَلَّةٌ من خلال السَّفَه قد يُبْتَلَى بها الحُلَمَاءُ عند الدُّنُو من السلطان؛ حتى يُحَدِّثَ الرجل منهم نفسه أن يكون دون الأهل والولد، لفضلِ يظنُّه بنفسه أو نقصِ يظنُّه بغيره.

ولكلِّ رجلٍ من الملوك أو ذوي هيئَةٍ من السُّوقَةِ أليفٌ وأنيسٌ، قد عَرَفَ روحه واطَّلَعَ على قلبه، فليستْ عليه مئونة في تبدُّل يتبدَّلُه عنده، أو رأيٍ يستبِين منه، أو سرٍّ يفشيه إليه، غير أنَّ تلك الأئسَّة^{٢٨} وذلك الإلف يستخرج من كل واحد منهما ما لم يكن ليظهر منه عند الانقباض والتشدُّد، ولو التمس مُلْتَمَسٌ مثل ذلك عند مَنْ يستأنِف ملاطفته ومؤانسته ومناسمته^{٢٩} — وإن كان ذا فضل في الرأي وبسطة في العلم — لم يجد عنده مثل ما هو منتفعٌ به ممن هو دون ذلك في الرأي، ممن قد كُفِيَ مؤانسته ووقع على طباعه.

^{٢٤} جمع خلي.

^{٢٥} النقض: المناقضة.

^{٢٦} لكفاية.

^{٢٧} المفارقة.

^{٢٨} الأئسَّة بالتحريك: ضد الوحشة.

^{٢٩} المناسبة: المسارة.

لأنَّ الأَنْسَةَ رَوْحٌ ٣٠ للقلوب، وأنَّ الوَحْشَةَ رَوْعٌ ٣١ عليها، ولا يَلْتَأَطُ ٣٢ بالقلوب إلا ما لأنَّ عليها، وَمَنْ استقبل الأَنْسَ بالوحشة استقبلَ أمرًا ذا مئونة.
 فإذا كَلَّفْتِكَ نَفْسَكَ السُّمُومَ ٣٣ إلى منزلة من وصفتُ لك، فافدَعُهَا ٣٤ عن ذلك بمعرفة فضل الأليف والأنيس، وإذا حَدَّثْتِكَ نَفْسَكَ أو غيرِكَ ممن لعلَّه أن يكون عنده فضل في مُرُوءَةٍ؛ أنك أولى بالمنزلة عند السلطان من بعض دُخلائه وثقاته، فاذا ذكر الذي على السلطان من حقِّ أليفه وثقته وأنيسه في التكرمة والمكانة والرأي، والذي يُعِينُهُ على ذلك من الرأي أنه يَجِدُ عنده من الألف والأنيس ما ليس واجدًا عند غيره.
 فليكن هذا مما تتحقَّقُ فيه على نفسك وتعرفُ فيه عذر السلطان ورأيه.
 والرأي لنفسك مثلُ ذلك، إن أرداك مريدًا على الدخول دون أليفك وأنيسك وموضع ثقتك وسرِّك وجدِّك وهزلك.

واعلم أنه يكاد يكون لكل رجل غالبية حديث لا يزال يُحَدِّثُ به؛ إمَّا عن بلد من البلدان، أو ضَرْبٍ من ضروب العلم، أو صِنْفٍ من صنوف الناس، أو وجه من وجوه الرأي، وعندما يُغْرَمُ به ٣٥ الرجل من ذلك يبدو منه السُّخْفُ ٣٦ ويُعْرَفُ منه الهوى. فاجتنب ذلك في كل موطن، ثمَّ عند السلطان خاصَّةً.

مطلبٌ «في كتمان ما تكرهه من رأي السلطان»

لا تَشْكُونَنَّ إلى وزراء السلطان ودُخلائه ما أطلعتَ عليه من رأي تَكْرَهُه له، فإنَّك لا تَزِيدُ على أن تَفْطَنَهُم لهواه، أو تُقَرِّبَهُم منه وتُغْرِيمَهُم بِتَزْيِينِ ذلك، والميل عليك معه.

٣٠ الرَّوْحُ بالفتح: الراحة.

٣١ الرَّوْعُ: الفزع.

٣٢ يَلْتَأَطُ.

٣٣ السُّمُومُ: مفعول آخر لكلف؛ لأن الفعل ينصب اثنين بنفسه أولهما الكاف.

٣٤ اقدعها: امنعها واكفها، والفعل كمنع.

٣٥ يولع به ويفتن.

٣٦ نقص العقل.

وأعلم أنّ الرجلَ ذا الجاه عند السلطان والخاصة، لا محالة أن يرى من الوالي ما يخالفه من الرأي في الناس والأمور، فإذا أثر^{٣٧} أن يكره كل ما خالفه أو شك أن يمتعض^{٣٨} من الجفوة يراها في المجلس، أو النبوة في الحاجة، أو الرد للرأي، أو الإدناء لمن لا يهوى إدناءه، أو الإقصاء لمن يكره إقصاءه.

فإذا وقعت في قلبه الكراهية تغير لذلك وجهه ورأيه وكلامه؛ حتى يبدو ذلك للسلطان وغيره، فيكون ذلك لفساد منزلته ومروءته سبباً وداعياً. فذلّ نفسك باحتمال ما خالفك من رأي السلطان، وقرّرها على أن السلطان إنما كان سلطاناً لتتبعه في رأيه وهواه وأمره، ولا تكلفه أتباعك وتغضب من خلفه إياك.

مطلب «في حثّ الوزير على تصحيح النصيحة»

اعلم أنّ السلطان يقبل من الوزراء التبخيل،^{٣٩} ويعده منهم شفقةً ونظرًا له، ويحمدهم عليه.

فإن كان جوادًا وكنّت مبخلًا، شنت صاحبك بفساد مروءته، وإن كنت مسخيًا^{٤٠} لم تأمن إضرار ذلك بمنزلتك عنده.

فالرأي لك تصحيح النصيحة على وجهها، والتماس المخلص من العيب واللائمة فيما تترك من تبخيل صاحبك، بالأ يعرف منك فيما تدعوه إليه ميلًا إلى شيء من هোক، ولا طلبًا لغير ما ترجو أن يزيّنه وينفعه.

مطلب «في أنّ الطالب لصحبة الملوك لا يفلح حتى يشايعهم ويمالئهم»

لا تكوننّ صحبتك للملوك^{٤١} إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك، وموافقهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هোক، وعلى ألا تكتمهم سرّك

^{٣٧} أثر: اصطفى واختار.

^{٣٨} أي يغضب.

^{٣٩} يريد أن السلطان يهوى من الوزراء من يحبب إليه البخل، ويزين له التقدير.

^{٤٠} أي محببًا في الكرم والسخاء.

^{٤١} أي تدليل.

ولا تستطلع ما كتموك، وتُخفي ما أطلعوك عليه على الناس كلهم حتى تحمي نفسك الحديث به، وعلى الاجتهاد في رضاهم، والتلطّف لحاجتهم، والتثبيت لحجّتهم، والتصديق لمقاتلتهم، والتزيين لرأيهم، وعلى قلة الاستقبح لما فعلوا إذا أسأوا، وترك الانتحال^{٤٢} لما فعلوا إذا أحسنوا، وكثرة النشر لمحاسنهم، وحسن السّتر لمساويهم، والمقاربة لمن قاربوا وإن كانوا بُدءاء، والمباعدة لمن باعدوا وإن كانوا أقرباء، والاهتمام بأمرهم وإن لم يهتموا به، والحفظ لهم وإن ضيّعوه، والذكر لهم وإن نسّوه، والتخفيف عنهم من مؤثنتك، والاحتمال لهم كلّ مؤنة، والرضى منهم بالعفو، وقلة الرضى من نفسك لهم إلا بالاجتهاد. وإن وجدت عنهم وعن صحبتهم غنى، فأغنِ عن ذلك نفسك واعتزلْه جهْدك. فإن من يأخذ عملهم بحقه، يُحلّ بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة، ومن لا يأخذ بحقه يحتمل الفضيحة في الدنيا والوزر في الآخرة.

مطلب «في مضار صحبة السلاطين»

إنك لا تأمن أنفة^{٤٣} الملوك إن علمتهم، ولا تأمن عقوبتهم إن كتمتهم، ولا تأمن غضبتهم إن صدقتهم، ولا تأمن سلوتهم^{٤٤} إن حدّثتهم، وإنك إن لزمتهم لم تأمن تبرّمهم بك، وإن زايلتهم^{٤٥} لم تأمن عقابهم، وإن تستأمرهم حملت المؤنة عليهم، وإن قطعت الأمر دونهم لم تأمن فيه مخالفتهم، إنهم إن سخطوا عليك أهلوك، وإن رضوا عنك تكلف من رضاهم ما لا تطيق.

فإن كنت حافظاً إن بلوك، جلدًا إن قربوك، أمينًا إن اتّمنوك؛ تعلّمهم وأنت تريهم أنك تتعلم منهم، وتؤدّبهم وكأنهم يؤدّبونك، تشكرهم ولا تكلفهم الشكر، بصيرًا بأهوائهم، مؤثرًا لمنافعهم، ذليلاً إن ظلموك، راضيًا إن أسخطوك،^{٤٦} وإلا فالبعد منهم كل البعد والحذر منهم كل الحذر.

^{٤٢} يريد إن أحسنوا فلا تنسب ذلك إلى نفسك دونهم.

^{٤٣} الأنفة بالتحريك وكذلك الأنف: الاستكفاف.

^{٤٤} السلوة: التبرم والمثل.

^{٤٥} زایل: فارق.

^{٤٦} جواب إن محذوف يفهم من المقام.

مطلبٌ «في التحذير من الاغترار بالسلطان والمال والعلم والجاه والشباب»

تحرَّز من سُكْرِ السلطان، وسُكْرِ المال، وسُكْرِ العلم، وسُكْرِ المنزلة، وسُكْرِ الشباب؛ فإنه ليس من هذا شيء إلا وهو ريح جنة تَسْلُب^{٤٧} العقل، وتذهب بالوقار، وتَصْرِف القلب والسمع والبصر واللسان إلى غير المنافع.

^{٤٧} الجِنة بالكسر: الجنون.

المقالة الثانية: في الأصدقاء

الباب الأول

في الأصدقاء

مطلبٌ «في معاملة الناس»

أبْدُلْ لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك^١ رِفْدَكَ^٢ وَمَحْضَرَكَ، وللعامَّةِ بِشْرَكَ وَتَحْنُكَ،
ولعدوكِ عَدْلَكَ وَإِنصافَكَ.
واضنن بدينك وعِرْضِكَ على كلِّ أحد.

مطلبٌ «في تحذير المرء من انتحاله رأي غيره»

إِنْ سمعت من صاحبك كلامًا أو رأيتَ منه رأيًا يعجبك، فلا تنتجِه تَزِيئًا به عند الناس،
واكتفِ من التزيُّنِ بأن تجتني الصَّوابَ إذا سمعته، وتنسبَه إلى صاحبه.
واعلم أنَّ انتحالك ذلك مسخطةٌ لصاحبك، وأنَّ فيه مع ذلك عارًا وسُخْفًا.
فإن بلغ بك ذلك أن تُشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع؛ جَمَعْتَ مع الظلم
قِلَّةَ الحياء، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس.
ومن تمام حُسن الخُلُق والأدب في هذا الباب، أن تَسْخُو نَفْسَكَ لأخيك بما انتحلَ من
كلامك ورأيك، وتنسبَ إليه رأيه وكلامه، وتزَيِّنَه مع ذلك ما استطعت.

^١ المعرفة: المعارف.

^٢ الرِّفْدُ بالكسر: العطاء.

ولا يكوننَّ من خُلِقَ أنْ تبتدئَ حديثاً ثم تقطعه وتقول: سوف، كأنك رَوَّأت^٣ فيه بعد ابتدائك إياه، وليكن ترويك فيه قبل التفوه به، فإن احتجان الحديث بعد افتتاحه سُخِّفَ وغُمَّ.

مطلبٌ «في الحَضُّ على تخير المواضع لرأيك»

اخزُنْ عقلك وكلامك إلا عند إصابة الموضوع؛ فإنه ليس في كلِّ حين يحسُنُ كلُّ صواب، وإنما تمام إصابة الرأي والقول بإصابة الموضوع، فإن أخطأك ذلك أدخلت المحنة^٥ على عقلك وقولك حتى تأتي في موضعه، وإن أتيت به في غير موضعه، أتيت به وهو لا بهاء ولا طلاوة له.

وليعرفِ العلماء حين تُجالسهم أنك على أن تسمعَ أحرص منك على أن تقول.

مطلبٌ «في تجنب الهزل ولو كان مزاحاً ما لم تكبت به عدواً»

إن آثرت أن تُفاخر أحداً ممن تستأنس إليه في لهُو الحديث، فاجعل غاية ذلك الجدِّ، ولا تعدُّ أن تتكلم فيه بما كان هزلاً، فإذا بلغه أو قاربَه فدعه. ولا تخلطن بالجدِّ هزلاً، ولا بالهزل جدًّا؛ فإنك إن خلطت بالجد هزلاً هجنته، وإن خلطت بالهزل جدًّا كدرته.

غير أنني قد علمتُ موطناً واحداً إن قدرت أن تستقبل فيه الجدِّ بالهزل، أصبت الرأي وظهرت على الأقران؛ وذلك أن يتورَّدك^٦ متورِّدٌ بالسفه والغضب وسوء اللفظ، فتجيبه إجابة الهازل المداعب، برُحْبٍ من الذُّرع، وطلاقةٍ من الوجه، وثباتٍ من المنطق.

^٣ رَوَّأت في الأمر بالهمز: إذا نظر فيه وتدبره، ومنه الرويَّة من غير همز، وهي الفكر مع التدبر.

^٤ من قولهم احتجن المال: ضمه إلى نفسه وأمسكه.

^٥ المحنة البلية.

^٦ يقال تورَّده: طلب وروده وحضوره.

مطلبٌ «في أن لا خوف عليك من أخي الثقة أن يخالط العدو»

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يُغضبَنَّك ذلك؛ فإنما هو أحد رجلين: إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع موطنه لك أقربها من عدوك؛ لشرِّ يكفه عنك أو لعورة يسترها منك، أو غائبة يطلع عليها لك، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقته. وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك، فبأي حق تقطعه عن الناس وتكلفه إلا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى؟

تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي، مداراةً لأن يظن أصحابك أنك إنما تريد التطاول عليهم.

مطلبٌ «في التحفظ من الصديق المقبل بوجه»

إذا أقبل إليك مقبلٌ بوجهٍ فسركَ ألا يدبر عنك، فلا تنعم الإقبال عليه والتفتُّح له؛ فإن الإنسان طبع على ضرائب لوم، فمن شأنه أن يرحل عمَّن لصق به، ويلصق بمن رحل عنه إلا من حفظ بالأدب نفسه وكابر طبيعته. فتحفظ من هذا فيك وفي غيرك.

مطلبٌ «في أن الدعي لا محالة مفضوح»

لا تكثرنَّ ادعاء العلم في كل ما يعرض بينك وبين أصحابك، فإنك من ذلك بين فضيحتين: إما أن ينازعوك فيما ادعيت؛ فيهجم منك على الجهالة والصلف.^٧ وإما ألا ينازعوك ويحلُّوا في يدك ما ادعيت من الأمور، فينكشف منك التصنع والمعجزة.

واستحِ الحياءَ كلَّه من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل؛ مصرحاً أو معرضاً. وإن استطلت على الأكفاء فلا تتقنَّ منهم بالصفاء.

^٧ الصلف بالتحريك: العُجْب ومجاوزة حد الظرف.

وإن أنست من نفسك فضلاً فتحرّج أن تذكره أو تُبديه، واعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرّر لك في قلوب الناس من العيب أكثر مما يقرّر لك من الفضل. واعلم أنك إن صبرت ولم تتعجلّ ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف عند الناس. ولا يخفينّ عليك أن حرص الرجل على إظهار ما عنده، وقلة وقاره في ذلك باب من أبواب البخل واللؤم.

وأن من خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرم. وإن أردت أن تلبس ثوب الوقار والجمال، وتتحلّى بحلية المودّة عند العامة، وتسلك الجدّد^٨ الذي لا خبار^٩ فيه ولا عثار، فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعيبى. فأما العلم فيزيّنك ويرشدك، وأما قلة ادعائه فينفي عنك الحسد، وأما المنطق «إذا احتجت إليه» فيبلغك حاجتك، وأما الصمت فيكسبك المحبة والوقار. وإذا رأيت رجلاً يحدث حديثاً قد علمته أو يُخبر خبراً قد سمعته، فلا تشاركه فيه ولا تتعقبه عليه، حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته، فإنّ في ذلك خفةً وشحاً وسوء أدب وسخفاً.

وليُعرف إخوانك والعامة أنك «إن استطعت» إلى أن تفعل ما لا تقول، أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل.

فإن فضل القول على الفعل عارٌ وهُجْنَةٌ، وفضل الفعل على القول زينة. وأنت حقيقٌ فيما وعدت من نفسك، أو أخبرت به صاحبك أن تحتجن بعض ما في نفسك؛ إعداداً لفضل الفعل على القول، وتحزّراً بذلك عن تقصير فعل إن قصّر، وقلما يكون إلا مقصراً.

مطلبٌ «في أن واجب المرء نحو عدوه العدل ونحو صديقه الرضاء»

احفظ قول الحكيم الذي قال: لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل، وفيما بينك وبين صديقك الرضاء.

^٨ الجدّد: الطريق.

^٩ الخبار بالفتح: الأرض الرخوة يصعب سلوكها.

وذلك أنَّ العدوَّ حَصْمٌ تَصَرَّعَه بالحجة، وتغلبه بالحكام، وأنَّ الصديق ليس بينك وبينه قاضٍ، فإنما حَكَّمَهُ رضاه.

مطلبٌ «في التثبُّت من الصديق قبل الإقدام عليه»

اجعل غاية تشبُّتِك في مؤاخاة مَنْ تُوَاحِي، ومواصلة من تواصل توطينَ نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك، وإنْ ظهر لك منه ما تكره، فإنه ليس كالمملوك تُعْتِقُه متى شئت، أو كالمراة التي تطلقها إذا شئت، ولكنَّه عِرْضُك ومروءتك، فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخذانه، فإن عَثَرَ الناس على أنك قطعْتَ رجلاً من إخوانك، «وإن كنت مُعْذِراً» نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والمَلال فيه، وإن أنت مع ذلك تصبَّرت على مُقَارَّته على غير الرضى، عاد ذلك إلى العيب والنقيصة.

فالاتِّئادُ الاتِّئادُ! والتثبُّتُ التثبُّتُ!

وإذا نظرت في حال من ترتئيهِ لإخائك، فإن كان من إخوان الدين، فليكن فقيهاً غير مُراءٍ ولا حريصٍ، وإن كان من إخوان الدنيا، فليكن حرّاً ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرّير ولا مشنوع.^{١٠}

فإن الجاهلَ أهلٌ أن يهربَ منه أبواه، وإنَّ الكذابَ لا يكونَ أخاً صادقاً؛ لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه، «وإنما سمي الصديق من الصدق، وقد يُتَّهم صدق القلب وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان؟» وإن الشرير يَكْسِبُك العدوَّ، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة، وإنَّ المشنوع شائعٌ^{١١} صاحبه.

واعلم أنَّ انقباضك عن الناس يكسبك العداوة، وأنَّ انبساطك^{١٢} إليهم يكسبك صديق السوء، وسوء الأصدقاء أضرُّ من بغض الأعداء، فإنك إن واصلتَ صديق السوء أغيثَكَ جرائره،^{١٣} وإن قطعتَه شانتك اسم القطيعة، وألزمك ذلك من يرفع عيبك ولا ينشرُ عُذْرَكَ، فإن المعاييب تَنْمِي والمعاذير لا تنمي.

^{١٠} المتنوع: الذي يجر على نفسه ما جلب التشنيع والتعبير.

^{١١} فاضح.

^{١٢} الانبساط: ضد الانقباض ويريد البعد والقرب.

^{١٣} الجرائر: جمع جريرة، وهي ما يجنيه الرجل على نفسه أو غيره.

مطلبٌ «فيما ينبغي للعاقل أن يسلكه إزاء العامة والخاصة»

البَسُّ للناس لباسين ليس للعاقل بُدُّ منهما، ولا عيشٌ ولا مروءةٌ إلاَّ بهما: لباسٌ انقباضٍ واحتجازٌ من الناس، تلبسه للعامة فلا يلقونك إلاَّ متحفِّظًا متشدِّدًا متحرِّزًا مستعدًّا. ولباسٌ انبساطٍ واستتئاس، تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك؛ فتلقاهم بذات صدرك وتُفْضي إليهم بمصون حديثك، وتضع عنك مئونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم.

وأهل هذه الطبقة — الذين هم أهلها — قليلٌ من قليلٍ حقًّا؛ لأنَّ ذا الرأي لا يدخل أحدًا من نفسه هذا المدخل إلاَّ بعد الاختبار والتكشُّف، والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد.

مطلبٌ «فيما ينبغي للعاقل أن يغلبه على لسانه»

اعلم أنَّ لسانك أداةٌ مُصَلِّتَةٌ، يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك، فكلُّ غالبٍ عليه مستمعٌ به وصارفه في محبته، فإذا غلب عليه عقلك فهو لك، وإنَّ غلب عليه شيءٌ من أشباه ما سمَّيتُ لك فهو لعدوك. فإن استطعت أن تحتفظ به وتصونه فلا يكون إلاَّ لك، ولا يستولي عليه أو يشاركك فيه عدوك فافعل.

مطلبٌ «في الحض على مواساة الصديق عند النوائب»

إذا نابت أخاك إحدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بليَّة، فاعلم أنك قد ابتليت معه؛ إمَّا بالمواساة فتشاركه في البليَّة، وإمَّا بالخذلان فتحتمل العار. فالتمس المخرج عند أشباه ذلك، وآثر مُروءتك على ما سواها. فإن نزلت الجائحة التي تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل،^{١٤} فلعل الإجمال يسعك؛ لقلَّة الإجمال في الناس.

^{١٤} يريد: اصنع الجميل.

مطلبٌ «ينبغي لصديق السلطان ألا يدل عليه بقدمه»

إذا أصاب أخوك فضلَ منزلة أو سلطان، فلا تُريته أن سلطانه قد زادك له وُدًا، ولا يعرفنَّ منك عليه بماضي إخائك تدلُّلاً، وأره أن سلطانه زادك له توقيراً وإجلالاً من غير أن يقدر أن يزيده وُدًا ولا نُصحاء، وأنت ترى حقاً للسلطان التوقيرَ والإجلال، فكُن في المداراة له والرفق به كالمؤتلف لما قبله، ولا تقدّر الأمور فيما بينك وبينه على شيء مما كنت تعرف من أخلاقه، فإنَّ الأخلاقَ مستحيلة^{١٥} مع السلطان، وربما رأينا الرجل المدلُّ على السلطان بقدمه قد أضرب به قدمه.

مطلبٌ «فيمن يجوز أن تعتذر إليه أو تحدّثه»

لا تعتذرنَّ إلا إلى من يحب أن يجد لك عذراً، ولا تستعيننَّ إلا بمن يحب أن يظفرك^{١٦} بحاجتك، ولا تحدّثنَّ إلا من يرى حديثك مغمماً، ما لم يغلبك اضطرابٌ. وإذا اعتذر إليك معتذراً، فقلقه بوجهٍ مُشرقٍ وبشرٍ ولسانٍ طليقٍ^{١٧} إلا أن يكون ممن قطيعته غنيمة.

إذا عرّست من المعروف غرساً، وأنفقت عليه نفقةً فلا تَضننَّ في تربيته ما غرست واستنمائه، فتذهب النفقة الأولى ضياعاً.^{١٨}

^{١٥} أي من شأنها الانتقال والتحول من قولهم: استحالت الأرض اعوجّت وخرجت عن الاستواء.

^{١٦} من الظفر بالحريك وهو الفوز بالمطلوب، وتقول منه أظفرتني فلان بكذا، وعلى كذا: أعانني على الفوز بمطلوبي.

^{١٧} ش: طليق.

^{١٨} وقد كتب الشنقيطي في نسخه إزاء هذا بخطه ما نصه:

عندي حدائق ود غرس أنعمكم قد مسّها عطش فليسق من غرسا
تداركوها وفي أعصانها رmq فلن يعود اخضرار العود إن يبسا

مطلبٌ «في الحرص على اتحاد الإخوان وتعهد المعروف»

اعلم أنّ إخوان الصدق هم خير مكاسب^{١٩} الدنيا، هم زينةٌ في الرخاء، وُعدَّةٌ في الشدة، ومعونةٌ على خير المعاش والمعاد، فلا تُفرطنَّ في اكتسابهم وابتغاء الوُصُلَات^{٢٠} والأسباب إليهم.

واعلم أنّك واجدٌ رغبتك من الإخاء عند أقوام قد حالت بينك وبينهم بعض الأُبْهَة^{٢١}، التي قد تعتري بعض أهل المروءات فتحجز عنهم كثيراً ممن يرغب في أمثالهم، فإذا رأيت أحداً من أولئك قد عتّر به الدهر، وعرفتَ نفسك أنه ليس عليك في دُنُوك منه، وابتغائك موَدَّته وتواضعك له؛ مذلَّةٌ، فاغتنم ذلك منه واعمل فيه.

مطلبٌ «في أنّ إحياء المعروف بنسيانه والتصغير له»

إذا كانت لك عند أحد صنيعَةٌ^{٢٢} أو كان لك عليه طَوْلٌ^{٢٣}، فالتمس إحياء ذلك بإماتته، وتعظيمه بالتصغير له، ولا تقتصرنَّ في قلة المنِّ^{٢٤} به على أنّ تقول: لا أدكرُهُ ولا أصغي بسمعي إلى مَنْ يذكره، فإن هذا قد يستحي منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كَرَم، ولكن احذر أنّ يكون في مجالستك إيّاه، وما تُكلمه به أو تستعينه عليه أو تُجاريه فيه؛ شيءٌ من الاستطالة فإن الاستطالة تهدم الصنيفة وتُكدر المعروف.

^{١٩} جمع مكسب وهو اسم لما يكتسبه الإنسان من الرزق.

^{٢٠} جمع وُصلة بالضم وهي الاتصال.

^{٢١} الأُبْهَة كسكرة: العظمة والجلال.

^{٢٢} ما اصطنعت من الخير.

^{٢٣} الفضل.

^{٢٤} هو تعدادك النعم على مَنْ أحسنت إليه.

مطلبٌ «في علاج انفعالات النفس والاحتراس منها»

احترس من سَوْرَةِ الغضب، وسَوْرَةِ الحمية، وسَوْرَةِ الحقد، وسَوْرَةِ الجهل،^{٢٥} وأعدِدْ لكلِّ شيءٍ من ذلك عُدَّةً تجاهده بها من الحلم، والتفكُّر، والرويَّة،^{٢٦} وذكّر العاقبة، وطلب الفضيلة.

واعلم أنّك لا تُصيبُ الغلبةَ إلَّا بالاجتهاد والفضل، وأنَّ قلةَ الإعدادِ لمداغةِ الطبائعِ المتطلعةِ هو الاستسلام لها، فإنّه ليس أحدٌ من الناس إلَّا وفيه من كل طبيعةٍ سوء غريزة، وإنما التفاضل بين الناس في مغالبةِ طبائعِ السوء.

فأمّا أن يَسْلَمَ أحدٌ من أن تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمَعٌ، إلَّا أنَّ الرجل القويَّ إذا كابرها بالقمع^{٢٧} لها كلما تطلَّعتْ لم يلبث أن يُميّتها حتى كأنها ليست فيه، وهي في ذلك كامنة كُمون النار في العود، فإذا وَجَدتْ قَادِحًا^{٢٨} من علة، أو غفلةً استورت^{٢٩} كما تستوري النار عند القدح، ثم لا يبدأ ضَرْها إلَّا بصاحبها، كما لا تبدأ النار إلَّا بعودها الذي كانت فيه.

مطلبٌ «في الصبر على من يلازمك وبيان أنواعه ومعناه»

ذَلَّلْ نفسك بالصبر على جارِ السوء، وعشيرِ السوء، وجليسِ السوء؛ فإن ذلك مما لا يكاد يُخْطِئُكَ.

واعلم أنّ الصبر صبران: صبرُ المرء على ما يكره، وصبره عما يُحِبُّ.
والصبر على المكروه أكبرهما^{٣٠} وأشبههما أن يكون صاحبه مُضْطَرًّا.
واعلم أنّ اللثام أصبر أجسادًا، وأنَّ الكرام هم أصبر نفوسًا.

^{٢٥} الجهل هنا هو ضد العلم.

^{٢٦} الفكر والتدبر وهي كلمة جرت على ألسنتهم بغير همز؛ تخفيفًا من روات في الأمر بالهمز إذا نظرت فيه.

^{٢٧} القهر والإذلال.

^{٢٨} من قدح بالزند: رام إخراج ناره.

^{٢٩} من الورى وهو اتقادها واستعارها.

^{٣٠} ويروى: أكثرهما.

وليس الصبر المدوح بأن يكون جُلْدُ الرجل وَقَاحًا^{٣١} على الضرب، أو رِجْلُهُ قَوِيَّةً على المشي، أو يَدُهُ قَوِيَّةً على العمل؛ فإنما هذا من صفات الحَمِيرِ.
ولكنَّ الصبر المدوح أن يكون للنفس غُلُوبًا، وللأمر محتَمَلًا، وفي الصَّراء متجَمِّلًا،^{٣٢}
ولنفسه عند الرأْي والحِفاظ^{٣٣} مرتبِطًا،^{٣٤} وللحزم مُؤَثِّرًا، وللهمى تاركًا، وللمشقة التي
يرجو حسن عاقبتها مستخفًّا، ولنفسه على مجاهدة الأهواء والشهوات مُوطَّنًا^{٣٥} ولبصيرته
بعزمه مُنْفَذًا.^{٣٦}

مطلبٌ «في ترغيب النفس في العلم وبيان الأنفع منه»

حَبَّبَ إلى نفسك العِلْمَ حتى تلزمه وتألّفه، ويكون هو لهوَكِ ولذَنَكِ وسلوَتِكَ وتعلُّك^{٣٧}
وشهوَتِكَ.

واعلم أنَّ العلم علمان: علمٌ للمنافع، وعلمٌ لتذكية^{٣٨} العقول.
وأفشى العِلْمين وأجداهما^{٣٩} أن يَنْشَطَ له صاحبه من غير أن يُحَضَّ عليه علمُ
المنافع، والعلمُ الذي هو ذكاء العقول وصِقالها وجلأؤها، فضيلةٌ منزلةٌ عند أهل الفضيلة
والألباب.

^{٣١} أي فيه صلابة وكثرة احتمال.

^{٣٢} من التجمال وهو التزين، يريد أنه لا يذل ولا يتخشع ولا يستكين.

^{٣٣} الحِفاظ: الغضب والاسم الحفيظة.

^{٣٤} من الارتباط وهو تسكين النفس وتثبيتها.

^{٣٥} يقال وطَّن نفسه على الأمر توطيئًا: ذلَّلها ومهدها لفعله.

^{٣٦} ممضيًا، من أنفذ الأمر أو القول: أمضاه وأبرمه.

^{٣٧} تعلل بالأمر: تشاغل، وبالمراة: تلهى، وعلله بطعام وغيره: شغله به، والتعلة والعلالة بالضم: ما يتعلل به.

^{٣٨} من الذكاء وهو سرعة الفهم.

^{٣٩} أكثرهما.

مطلبٌ «في أقسام السخاء وتحبيب النفس إليه»

عوذُ نفسك السخاء. ٤٠

واعلم أنه سخاءان: سخاوةُ نفس الرجل بما في يديه، وسخاوته^{٤١} عما في أيدي الناس.

وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة، وتركه ما في أيدي الناس أمحض في التكرُّم وأبرأ من الدَّنَس وأنزه. فإن هو جمعهما فَبَدَلَ وَعَفَّ فقد استكمل الجود والكرم.

مطلبٌ «في ذم الحسد وذكر ما يُنجي منه»

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسودًا. فإن الحسد^{٤٢} خُلِقَ لئيمٌ، ومن لؤمه أنه موكَّل^{٤٣} بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفء والمعارف والخُلطاء والإخوان.

فليكن ما تعامل^{٤٤} به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك، وأنَّ غُنْمًا حسنًا لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه، وأفضل منك في القوَّة فيدفع عنك بقوته، وأفضل منك في المال فتُفِيدَ^{٤٥} من ماله، وأفضل منك في الجاه فتُصِيبَ حاجتك بجاهه، وأفضل منك في الدين فتزددَ صلاحًا بصلاحه.

٤٠ الجود والكرم.

٤١ يقال سخت نفسي عن كذا إذا تركته عن رغبة ومطوعة.

٤٢ هو تمنى أن تتحول نعمة المحسود وفضيلته إلى الحاسد أو يسلبهما.

٤٣ ملازم.

٤٤ لعله يريد: فليكن ما تقابل به الحسد، أو تعالج إلخ، وإن كانت هذه الكلمة مستعملة في عُرف الأمصار بمعنى التصرف من بيع ونحو، ولم تكن في استعمال العرب.

٤٥ أفاده واستفاده وتفيده بمعنى واحد وهو اقتناه.

مطلبٌ «في التحذير من أن تكاشف عدوك أو حاسدك بدخيلة نفسك»

ليكن مما تنتظر فيه من أمر عدوك وحاسدك، أن تعلم أنه لا ينفك أن تخبر عدوك وحاسدك أنك له عدو، فتُذَرَّه بنفسك، وتؤذنه بحربك قبل الإعداد والفرصة، فتحمله على التسلح لك، وتوقد ناره عليك.
واعلم أنه أعظم لخطرك^{٤٦} أن يرى عدوك أنك لا تتخذة عدواً، فإن ذلك غرّة^{٤٧} له وسبيلٌ لك إلى القدرة عليه، فإن أنت قدرت واستطعت اغتفار العداوة عن أن تكافئ بها فهناك استكملت عظيم الخطر.

مطلبٌ «في مكافأة العدو وبيان الحيلة في تفريق الناس عنه»

إن كنت مكافئاً بالعداوة والضرر، فإياك أن تكافئ عداوة السرّ بعداوة العلانية، وعداوة الخاصة بعداوة العامة، فإن ذلك هو الظلم.
واعلم مع ذلك أنه ليس كل العداوة والضرر يُكافأ بمثله: كالخيانة لا تُكافأ بالخيانة، والسرقة لا تُكافأ بالسرقة.
ومن الحيلة في أمرك مع عدوك أن تصادق أصدقاءه وتواخي إخوانه، فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتلاحي^{٤٨} والتجافي؛ حتى ينتهي ذلك بهم إلى القطيعة والعداوة له، فإنه ليس رجلٌ ذو طرُق^{٤٩} يمتنع من مؤاخاتك إذا التمس ذلك منه، وإن كان إخوان عدوك غير ذوي طرُق فلا عدو لك.

مطلبٌ «في الحض على الوصول إلى مثالب العدو وكتمها عنه»

لا تدعُ — مع السكوت عن شتم عدوك — إحصاء^{٥٠} مثالبه ومعايبه ومعايره^{٥١} واتّباع عوراته؛ حتى لا يشدُّ عنك من ذلك صغير ولا كبير، من غير أن تشيع ذلك عليه فينتقك

^{٤٦} الخطر: الشرف ورفعة القدر.

^{٤٧} الغفلة.

^{٤٨} التلاحي: التنازع ويقال لاحاه ملاحاة: نازعه، والتجافي من قولك: تجافي فلان: لم يلزم مكانه.

^{٤٩} الطرُق بالفتح: ضعف العقل.

^{٥٠} العد والحفظ، ومنه تقول أحصى فلان كذا: عدّه وحفظه وعقله.

^{٥١} المعاييب، واتّباع العورات: تطلبها واستقصاؤها.

به، ويستعدُّ له، ولا تذكره في غير موضعه، فتكون كمستعرض الهواء بِنَيْلِهِ^{٥٢} قبل إمكان الرمي.

ولا تتخذنَّ اللعن والشتم على عدوك سلاحًا؛ فإنه لا يجرح في نفس، ولا منزلة، ولا مال، ولا دين.

مطلبٌ «في الحُصِّ على كتمان دهائك عن الناس»

إن أردت أن تكون داهياً^{٥٣} فلا تُحِبَّنَّ أن تسمي داهياً؛ فإنه من عُرِفَ بالدهاء خاتل^{٥٤} علانيةً، وحذرَه الناس^{٥٥} حتى يمتنع منه الضعيف ويتعرَّض له القويُّ.

وإن من إزب^{٥٦} الأريب دفن^{٥٧} إزبه ما استطاع حتى يُعرف بالمسامحة في الخليفة والاستقامة في الطريقة.

ومن إزبه ألا يوارب^{٥٨} العاقل المستقيم الطريقة، والذي يطلع على غامض إربه فيمقته عليه.

وإن أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة^{٥٩} للأمر، من غير أن تظهر منك الهيبة، فنقطنهم بنفسك، وتجرتهم عليك، وتدعو إليك منهم كل الذي تهاب.

فأشعب^{٦٠} مداراة ذلك من كتمان الهيبة وإظهار الجرأة^{٦١} والتهاون طائفة^{٦٢} من رأيك.

^{٥٢} النبل يفتح النون وسكون الباء الموحد: هي السهام لا واحد لها، والجمع نبال.

^{٥٣} من الدهي، وهو الفكر، وجودة الرأي، وهو الدهاء أيضاً.

^{٥٤} خادع.

^{٥٥} أي احترزوا منه.

^{٥٦} الإرب بكسر الهمزة: الدهاء والعقل.

^{٥٧} أي ستره ومواراته.

^{٥٨} من المواربة: المداهة والمخاتلة.

^{٥٩} الهيبة: المخافة والتقية.

^{٦٠} أي فأجمع، والمفعول هو قوله في آخر الجملة: طائفة من رأيك.

^{٦١} الشجاعة والإقدام، والتهاون: الاستخفاف وعدم المبالاة.

^{٦٢} الطائفة من الشيء: القطعة منه وما هنا على المجاز والسعة.

وإنَّ ابْتَلِيَتْ بِمَحَارِبَةِ عَدُوِّكَ فَحَالَفَ^{٦٣} هَذِهِ الطَّرِيقَةَ الَّتِي وَصَفْتُ لَكَ مِنْ اسْتِشْعَارِ
الْهَيْبَةِ وَإِظْهَارِ الْجُرْأَةِ وَالتَّهَؤُنِّ، وَعَلَيْكَ بِالْحَذَرِ وَالْجِدِّ فِي أَمْرِكَ، وَالْجُرْأَةِ فِي قَلْبِكَ؛ حَتَّى
تَمَلَأَ قَلْبُكَ جَرَأَةً وَيَسْتَفْرِغَ عَمَلُكَ الْحَذَرَ.

مطلبٌ «في أحوال الأعداء وبيان السبيل التي تصل بك إلى قهرهم والغلبة عليهم»

اعلم أنَّ من عدوِّكَ من يعمل في هلاكك، ومنهم من يعمل في مصالحتك، ومنهم من يعمل
في البعد منك.

فاعرفهم على منازلهم.

ومن أقوى القوَّة لك على عدوِّكَ، وأَعَزُّ أَنْصَارِكَ فِي الْغَلْبَةِ لَهُ؛ أَنْ تُحْصِيَ عَلَى نَفْسِكَ
الْعِيُوبَ وَالْعُورَاتِ، كَمَا تُحْصِيهَا عَلَى عَدُوِّكَ، وَتَنْظُرَ عِنْدَ كُلِّ عَيْبٍ تَرَاهُ أَوْ تَسْمَعُهُ لِأَحَدٍ
مِنَ النَّاسِ: هَلْ قَارَفْتَ^{٦٤} ذَلِكَ الْعَيْبَ أَوْ مَا شَاكَلَهُ؟ أَوْ سَلِمْتَ مِنْهُ.

فَإِنْ كُنْتَ قَارَفْتَ شَيْئًا مِنْهُ جَعَلْتَهُ مِمَّا تُحْصِي عَلَى نَفْسِكَ، حَتَّى إِذَا أَحْصَيْتَ ذَلِكَ
كُلَّهُ فَكَأَثَرَ^{٦٥} عَدُوُّكَ بِإِصْلَاحِ نَفْسِكَ وَعَثْرَاتِكَ^{٦٦}، وَتَحْصِينَ عُورَاتِكَ وَإِحْرَازِ مَقَاتَلِكَ.
وَحُذِّ نَفْسِكَ بِذَلِكَ مُمَسِيًّا وَمُصْبِحًا.

فَإِذَا أَنْسَتَ مِنْهَا^{٦٧} دَفَعًا لَهُ وَتَهَاوَنًا بِهِ،^{٦٨} فَاعْدُدْ نَفْسَكَ عَاجِزًا ضَائِعًا خَائِبًا، مُعُورًا^{٦٩}
لِعَدُوِّكَ، مُمَكِّنًا^{٧٠} لَهُ مِنْ رَمِيكَ.

^{٦٣} أي التزم هذه الطريقة ولا تعدل عنها.

^{٦٤} أي أتيت مثله وارتكبته.

^{٦٥} المكثرة: المغالبة.

^{٦٦} جمع عثرة وهي هنا: الزلة والسقوط في الإثم.

^{٦٧} أي أبصرت وأحسست من نفسك.

^{٦٨} الضميران في كلمتي «له، به» يعودان على إحصاء الإنسان عيوبه.

^{٦٩} من أعور الفارس: إذا بدا فيه موضع خلل للضرب.

^{٧٠} يقال مكنت فلاناً من الشيء، وأمكنته إذا جعلت له سلطاناً عليه وقدرة فتمكن منه.

مطلبٌ «في دواء ما يُستعصى عليك إصلاحه من أدواء نفسك»

وإن حصل من عيوبك وعوراتك ما لا تقدر على إصلاحه من ذنبٍ مضى لك، أو أمرٍ يعيبك عند الناس، ولا تراه أنت عيباً، فاحفظ ذلك، واجعله نُصَبَ عينيك^{٧١} ولا تقل: وما عسى يقول فيّ القائل! فاعلم أنّ عدوك مُريدك بذلك، فلا تغفل عن التَّهَيُّؤِ له بحيلتك فيه سراً وعلانيةً، وعن الإعداد لقوتك وحجتك من نسبك ومثالب أبائك أو عيب إخوانك وأخدانك. فأما الباطل فلا تروعن به قلبك ولا تستعدنَّ له ولا تشتغلنَّ بشيءٍ من أمره، فإنه لا يهولك ما لم يقع، وما إن وقع اضمحل.

مطلبٌ «في أنّ ما في نفسك تظهر آثاره عليك إذا فوجئت به»

واعلم أنه قلماً بيده^{٧٢} أحد بشيء يعرفه من نفسه — وقد كان يطمع في إخفائه عن الناس — فيعير^{٧٣} به مُعيرٌ عند السلطان أو غيره، إلا كاد يشهد به عليه وجهه وعينه ولسانه الذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون من انكساره وفتوره عند تلك البديهة. فاحذر هذه وتصنع لها، وخذ أهبك لبغّات^{٧٤}ها وتقدّم في أخذ العتاد لنفيها.

مطلبٌ «في نَمِّ الغرام بالنساء والتحذير منه»

اعلم أنّ من أوقع^{٧٥} الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأقتلها للعقل، وأزراها^{٧٦} للمروءة، وأسرعها في زهاب الجلالة والوقار؛ الغرام^{٧٧} بالنساء.

^{٧١} أي الغاية التي يتجه إليها نظرك.

^{٧٢} بدهة بأمر: استقبله به مفاجأة.

^{٧٣} يقال عيرت فلاناً كذا: إذا نسبت إليه وقبحته عليه، ولا يجوز أن تقول عيرته بكذا؛ لأن المستعمل في كلامهم عيرته الأمر متعدياً بنفسه، بخلاف المصباح.

^{٧٤} جمع بغّته وهي الفجأة.

^{٧٥} هذا اللفظ مستعار من وقعة الحرب، وهي الصدمة بعد الصدمة، والاسم الوقيعة والواقعة.

^{٧٦} من قولهم ذرى عليه: نقصه وعابه، والمروءة: آداب نفسانية تحمل الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.

^{٧٧} الولوع بالشيء والاستهتار به.

ومن البلاء على المُعْرَمِ بهنَّ أنه لا ينفك يأجمُ^{٧٨} ما عنده، وتطمحُ^{٧٩} عيناه إلى ما ليس عنده منهنَّ.

وإنما النساءُ أشباهُ.

وما يَتَزَيَّنُ في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهنَّ على معروفاتهنَّ باطلٌ وخُدعةٌ، بل كثيرٌ مما يَرَعْبُ عنه الراغب مما عنده أفضلُ مما تتوق إلىه نفسه منهنَّ.

وإنما المرْتِغِبُ^{٨٠} عما في رَحله منهنَّ إلى ما في رحال الناس كالمرْتِغِبِ عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس، بل النساءُ بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشدُّ تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء.^{٨١}

ومن العَجَبِ أَنَّ الرجل الذي لا بأس بلبِّهِ ورأيه يرى المرأة من بعيد متلففةً في ثيابها، فيصوِّرُ لها في قلبه الحسنَ والجمالَ حتى تَعَلَّقَ بها نفسه من غير رُؤية ولا خَبْرٍ مُخْبِرٍ، ثم لعله يهجم منها على أقبح القُبْحِ وأدَمِّ الدَّمَامةِ، فلا يعظه^{٨٢} ذلك، ولا يقطعُه عن أمثالها، ولا يزال مشعوفاً^{٨٣} بما لم يَدُقْ، حتى لو لم يبق في الأرض غيرُ امرأةٍ واحدةٍ لظَنَّ أَنَّ لها شأنًا غير شأن ما ذاق.

وهذا هو الحُمُقُ والشقاءُ والسفه.

ومن لم يَحِمِ نفسه ويطلِّقها ويحلِّثها^{٨٤} عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعاتِ شهوته وقدرته، كان أيسر ما يصيبه من وبال ذلك انقطاع تلك اللذات عنه

^{٧٨} يكره وبابه ضرب.

^{٧٩} يقال طمح ببصره إلى كذا: استشرف له.

^{٨٠} يقال رغب في الشيء رغبةً أرادَه كارتغب ورغب عنه لم يردَه.

^{٨١} كتب الشنقيطي بخطه إزاء هذا الموضع ما نصه:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

^{٨٢} أي لا يكفه.

^{٨٣} من قولك شعفت بكذا: إذا غشي إلى قلبك، ووصل إلى شعفته.

^{٨٤} يطردها ويمنعها.

بخمود نار شهوته وُضِعَ حوامل^{٨٥} جسده، وقلَّ من تجدُّه إلا مخادِعًا لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والجميعة^{٨٦} والدواء، وفي أمر مُرْوِئته عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دينه عند الرِّيبة والشبهة والطمع.

مطلبٌ «فيما يدعو إلى تعظيمك وتوقيرك ودوام مجدك وشرفك»

إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك في كلِّ مجلس ومُقام ومقالٍ ورأيٍ وفعلٍ فافعل؛ فإنَّ رفعَ الناسِ إِيَّاك فوقَ المنزلة التي تحطُّ إليها نفسك، وتقريبهم إِيَّاك إلى المجلس الذي تباعدتَ منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم، وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تُزيِّنْ هو الجمال.^{٨٧}

لا يُعجِبَنَّكَ العالِمُ ما لم يكن عالماً بمواضع ما يعلم، ولا العاملُ إذا جهل موضع ما يعمل.

وإن غلبتَ على الكلام وقتاً فلا تُغلبَنَّ على السكوت؛ فإنه لعله يكون أشدهما لك زينةً، وأجلبهما إليك للمودة، وأبقاهما للمهابة، وأنفاهما للحسد.

مطلبٌ «في ذمِّ المرء والتحذير منه»

احذر المرء^{٨٨} وأغرِبْهُ،^{٨٩} ولا يمنعكَ حَذَرُ المرء من حُسْنِ المناظرة والمجادلة. واعلم أنَّ المماري هو الذي يريد أن يتعلَّم من صاحبه، ولا يرجو أن يتعلم منه صاحبه، فإن زعم زاعمٌ أنه مُجادلٌ في الباطل عن الحقِّ، فإنَّ المُجادِلَ، وإن كان ثابت

^{٨٥} الأرجل، ومن القدم والذراع؛ عصبها، الواحدة حاملة.

^{٨٦} بالكسر ما حمي من شيء.

^{٨٧} الحسن في الخلق والخلق، وكتب الشنقيطي بخطه إزاء هذا من نسخه ما نصه:

كن كاملاً وارض بصف النعال ولا تكن صدرًا بغير الكمال
فإن تصدرت بلا آلة صيرت ذاك الصدر صفَّ النعال

^{٨٨} هو الجدال مما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب.

^{٨٩} أي تباعده وأبعده.

الحُجَّةُ ظاهر البيئَةِ حاضر الذهن، فَإِنَّهُ يخاصم إلى غير قاضٍ، وإنما قاضيه الذي لا يعدلُ بالخصومة إلا إليه عدلُ صاحبه وعقله، فإن أنس أو رجا عند صاحبه عدلاً يقضي به على نفسه فقد أصاب وجه أمره، وإن تكلم على غير ذلك كان ممارياً. وإن استطعت ألا تُخبرَ أخاك عن ذات ٩٠ نفسك بشيء إلا وأنت محتجٍ ٩١ عنه بعض ذلك التماساً لفضل الفعل على القول، واستعداداً لتقصير فعل — إن قصر — فافعل. واعلم أن فضل الفعل على القول زينةٌ، وفضل القول على الفعل هُجْنَةٌ، ٩٢ وأن إحكام هذه الخَلَّةِ من غرائب الخلال.

مطلبٌ «في أن لا راحة من كثرة الأعمال إلا بالفراغ منها»

إذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلتمس الرُّوحَ ٩٣ في مدافعتها؛ ٩٤ بالرَّوْغانِ منها؛ فإنه لا راحةَ لك إلا في إصدارها، ٩٥ وإنَّ الصبرَ عليها هو الذي يخففها عنك، والضَّجَرَ هو الذي يراكمها عليك.

فتعهَّد من ذلك في نفسك خَصَلَةٌ قد رأيتها تعترى بعض أصحاب الأعمال؛ وذلك أنَّ الرجل يكون في أمر من أمره، فَيَرِدُ عليه شغلٌ آخرٌ، أو يأتيه شاغلٌ من الناس يكره إتيانه، فيكدرُ ذلك بنفسه تكديراً يُفسدُ ما كان فيه وما ورد عليه، حتى لا يُحَكِّمَ واحداً منهما، فإذا ورد عليك مثلُ ذلك فليكن معك رأيك وعقلك اللذان بهما تختار الأمور، ثُمَّ اخترْ أَوْلَى الأمرين بشغلك، فاشتغل به حتى تفرِّغ منه، ولا يعظمنَّ عليك قُوَّةُ ما فات وتأخيرٌ ما تأخر إذا أعملت الرأي مُعَمَّلاً، وجعلت شغلك في حقه، واجعل لنفسك في كل شغلٍ غايةً ترجو القوة والتمام عليها.

٩٠ ذات النفس: عبارة عما تخفيه وتضمه فيها.

٩١ والمراد أن يحبس عنه بعض ذلك ويكتمه: من قولهم احتجن فلان المال: ضمه إليه واحتواه.

٩٢ بالضم هي من الكلام ما يعيبه.

٩٣ أي الراحة.

٩٤ تمهلها إلى يوم بعد يوم.

٩٥ الانصراف عنها والفراغ منها.

مطلبٌ «في ذمِّ تجاوز الحد»

اعلم أنك إن تجاوزت الغاية في العبادة صرْتَ إلى التقصير، وإن جاوزتها في حَمَل العلم لحقت بالجهال، وإن جاوزتها في تكَلُّف رضى الناس والخفَّة معهم في حاجاتهم كنت المُحَسَّر المُضَيِّع.^{٩٦}

واعلم أن بعض العطية لؤمٌ، وبعض السلاطة^{٩٧} غمٌ، وبعض البيان عيٌّ، وبعض العلم جهلٌ. فإن استطعت ألا يكون عطاؤك جورًا، ولا بيانك هذرًا،^{٩٨} ولا علمك وبلاً فافعل.

مطلبٌ «في الحرص على حفظ ما يروعك ويعجب غيرك»

اعلم أنه ستمُّ عليك أحاديث تُعجبك؛ إمَّا مليحةٌ وإمَّا رائعة. فإذا أعجبتك كنت خليقًا أن تحفظها، فإن الحفظ موكلٌ بما ملَّح وراعٍ، وستحرص على أن تعجبَ منها الأقوام، فإن الحرص على ذلك التعجب من شأن الناس، وليس كلُّ مُعجب لك مُعجبًا لغيرك. فإذا نشرت ذلك المرَّة والمرتين فلم تره وَقَعَ من السامعين موقعه منك فانزجر عن العودة، فإن العجب من غير عجيب سُخْفٌ^{٩٩} شديدٌ. وقد رأينا من الناس مَنْ تعلَّق بالشيء ولا يقلع عنه وعن الحديث به، ولا يمنعه قِلَّة قبول أصحابه له من أن يعود إليه ثم يعود.

^{٩٦} من التحسير وهو الإيقاع في الحسرة، والمضيع: يريد به أن يكون بدار ضياع وهلاك.

^{٩٧} حدة اللسان وشدته.

^{٩٨} الهذر سقط الكلام.

^{٩٩} السخف: رقة العقل ونقصانه.

ثم انظر الأخبار الرائعة فتحفظ ١٠٠ منها؛ فإن الإنسان من شأنه الحرص على الإخبار، ولا سيما ١٠١ ما يرتاع الناس له، فأكثر الناس من يحدث بما سمع، ولا يبالي ممن سمع، وذلك مفسدة للصدق ومزرة بالمرءة.
فإن استطعت ألا تخبر بشيء إلا وأنت به مصدق (لا يكون تصديقك إلا ببرهان) فافعل، ولا تقل كما يقول السفهاء: أخبر بما سمعت.
فإن الكذب أكثر ما أنت سامع، وإن السفهاء أكثر من هو قائل، وإنك إن صرت للأحاديث واعياً وحاملاً، كان ما نعي وتحمل عن العامة أكثر مما يخرع المخترع بأضعاف.

مطلب «في العفو عن الناس وعدم مجارة السفية»

انظر من صاحبته من الناس؛ من ذي فضل عليك بسطان أو منزلة، أو من دون ذلك من الأكفاء والخُلطاء والإخوان، فوطن نفسك في صحبتته على أن تقبل منه العفو، وتسخو نفسك عما اعتاص ١٠٢ عليك مما قبله، غير معاتب ولا مستبطي ولا مستزيد، فإن المعاتبه مقلعة للود، وإن الاستزادة من الجشع، ١٠٣ وإن الرضا بالعفو والمسامحة في الخلق مقرّب لك كل ما تنوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة.
واعلم أنك ستبلى من أقوام بسفه، وأن سفه السفية سيطلع له منك حقداً، فإن عارضته أو كافأته بالسفه، فكأنك قد رضيت ما أتى به، فأحببت أن تحتدي على مثاله، فإن كان ذلك عندك مذموماً، فحقوق ذمك إياه بترك معارضته، فأما أن تذمه وتمتثله، ١٠٤ فليس ذلك لك سداداً. ١٠٥

١٠٠ من الحفظ وهو استظهار الشيء، واختار هذه الصيغة؛ لينبه على كثرة الحفظ من ذلك النوع، وتفسير هذه الكلمة بالاحتراس والتحرز ناب عن السياق.
١٠١ هذا تركيب كالكلمة الواحدة، ويساق لترجيح ما بعده على ما قبله، فيكون كالمخرج عن مساواته إلى التفضيل.

١٠٢ أي ما يصعب عليك استخراج معناه.

١٠٣ أشد الحرص وأسوأه.

١٠٤ يقال امتثل المثال: حذا حذوه وصنع مثيله.

١٠٥ السداد: الصواب من القول والعمل.

مطلبٌ «لا تصاحب أحدًا من الناس إلا بالمروءة وإن كان ذا دالة عليك»

لا تصاحبنَّ أحدًا «وإن استأنستَ به أحمًا ذا قرابة أو أحمًا ذا مودة»، ولا والدًا ولا ولدًا إلا بمروءة، فإن كثيرًا من أهل المروءة قد يحملهم الاسترسال والتبذُّل على أن يصبحوا كثيرًا من الخطاء بالإدلال والتهاون والتبذُّل.

ومن فقدَ من صاحبه صُحبة المروءة ووقارها وجلالها، أحدثَ ذلك له في قلبه رِقَّةً شأنٌ وسُخفٌ منزلة.

ولا تلتمس غُلبَةً صاحبك والظَّفَرَ عليه عند كلِّ كلمةٍ ورأيٍ، ولا تجترئنَّ على تقريره بظَّفرك إذا استبان، وحُجَّتك عليه إذا وضحت.

فإن أقوامًا قد يحملهم حُبُّ الغلبة وسفَهُ الرأي في ذلك، على أن يتعقَّبوا^{١٠٦} الكلمة بعدما تُنسى، فيلتمسوا فيها الحُجَّة، ثم يستطيلوا^{١٠٧} بها على الأصحاب، وذلك ضَعْفٌ في العقل، ولؤمٌ في الأخلاق.

مطلبٌ «في التحذير من أن تخدع بإكرام من يكرمك لجاه أو منزلة»

لا يُعجبَنَّ إكرامَ مَنْ يكرمك لمنزلةٍ أو لسلطانٍ؛ فإن السلطان أوشك^{١٠٨} أمور الدنيا زوالًا، ولا يعجبَنَّ إكرامَ مَنْ يكرمك للمال؛ فإنه هو الذي يتلو السلطان في سرعة الزوال، ولا يُعجبَنَّ إكرامهم إِيَّاكَ للنسب؛ فإن الأنساب أقلُّ مناقب الخير غناءً^{١٠٩} عن أهلها في الدين والدنيا.

ولكنَّ إذا أُكْرِمتَ على دينٍ أو مُروءةٍ فذلك فليعجبك! فإنَّ المروءة لا تزيالك^{١١٠} في الدنيا، وإنَّ الدين لا يزيالك في الآخرة.

^{١٠٦} تعقبه: أخذه بذنب وتعقبه طلب عورته أو عثرته، فمعنى قوله: يتعقبوا الكلمة يعتدوها عليه ذنبًا وعورة.

^{١٠٧} يقال استطال فلان على فلان: قهره وغلبه وتطاول عليه كذلك.

^{١٠٨} من الوشك وهو الإسراع، يقال وشك الأمر: أسرع.

^{١٠٩} يقال هذا الأمر أغنى أغنى فلان ناب عنه: وأجزأ مجزأه.

^{١١٠} من التزايل وهو التفرق.

مطلبٌ «في ذمّ الجبن والحرص»

اعلم أنّ الجبن مقتلةٌ، وأنّ الحرصَ محرمةٌ.
فانظر فيما رأيتَ أو سمعت: أَمُنْ قُتِلَ في القتال مُقبِلاً أكثرُ؟ أم من قُتِلَ مُدبراً؟
وانظر أَمُنْ يطلب إليك بالإجمال والتكّرم أحقُّ أن تسخو نفسك له بطلبته؟ أم من يطلب
إليك بالشّره^{١١١} والزيغ^{١١٢}؟
واعلم أنّه ليس كلُّ من كان لك فيه هوى، فدَكَرَهُ ذاكراً بسوءٍ وذكرته أنت بخير
ينفعه ذلك، بل عسى أن يضرّه.
فلا يستخفّنك ذكراً أحيد من صديقك أو عدوك إلا في مواطن دفع أو محاماة،^{١١٣}
فإنّ صديقك إذا وثق بك في مواطن المحاماة، لم يحفل^{١١٤} بما تركت مما سوى ذلك، ولم
يكن له عليك سبيل لائمة.
وإنّ من أحزم الرأي لك في أمر عدوك ألا تذكره إلا حيث تضرّه، وألا تعدّ يسيرَ
الضرر له ضرراً.

مطلبٌ «في الاحتراس مما يعترى الأخلاق الكريمة من الآفات»

اعلم أنّ الرجل قد يكون حليماً، فيحمله الحرص على أن يقول الناس جليدً، والمخافة أن
يقال مَهينٌ على أن يتكلّف الجهل، وقد يكون الرجل زميلاً^{١١٥} فيحمله الحرص على أن
يقال لَسَنٌ،^{١١٦} والمخافة من أن يقال عَيِيٌّ على أن يقول في غير موضعه فيكون هَذِرًا.^{١١٧}
فاعرف هذا وأشباهه، واحترس منه كلّهُ.

^{١١١} الشره: غلبة الحرص.

^{١١٢} الجور عن الحق.

^{١١٣} يقال حاميت عن فلان محاماة: منعت عنه ودافعت.

^{١١٤} لم يبال نقول ما حفلت بكذا، وما احتفلت به، ما باليت.

^{١١٥} الزميت: الوقور، والزميت: الكثير الوقار.

^{١١٦} أي فصيح.

^{١١٧} كثير الكلام في الخطأ والباطل.

مطلبٌ «في مخالفة ما يكون أقرب إلى هوك»

إذا بَدَهَكَ^{١١٨} أمران لا تدري أيُّهما أصوب؛ فانظر أيُّهما أقرب إلى هوك فخالفه، فإنَّ أكثرَ الصواب في خلاف الهوى.
وليجمع في قلبك الافتقارُ إلى الناس والاستغناء عنهم! وليكن افتقارك إليهم في لين كلمتك لهم، وحسنِ بِشرك بهم! وليكن استغناؤك عنهم في نزاهة عِرْضِك وبقاء عِرْكَ.

مطلبٌ «في آداب المجالسة»

لا تُجالسَنَّ امرأً بغير طريقته، فإنَّك إن أردتَ لقاءَ الجاهل بالعلم، والجافي^{١١٩} بالفقه، والعيبي بالبيان لم تزدَ على أن تُضَيِّعَ عِلْمَك، وتُوذِّيَ جليسك بحمك عليه ثَقُلَ ما لا يعرفُ، وغمَّك إياه بمثل ما يغتمُّ به الرجلُ الفصيحُ من مخاطبة الأعجمي^{١٢٠} الذي لا يفقه عنه.

واعلم أنَّه ليس من علمٍ تذكرُهُ عند غير أهله إلاَّ عابوه، ونصبوا^{١٢١} له ونقضوه عليك، وحرَّصوا على أن يجعلوه جهلاً، حتى إنَّ كثيراً من اللهو واللعب الذي هو أخفُّ الأشياء على الناس ليحُضِّره من لا يعرفُهُ، فيثقلُ عليه ويغتم به.
وليعلم صاحبك أنك تُشفق^{١٢٢} عليه وعلى أصحابه، وإيَّاك إن عاشرك امرؤ أو رافقك، أن يَرَى منك الولوعَ بأحدٍ من أصحابه وإخوانه وأخذانه، فإنَّ ذلك يأخذُ من أعنة القلوب مأخذاً، وإنَّ لطفك بصاحب صاحبك أحسنُ عنده موقفاً من لطفك به في نفسه.
واتقِ الفرح عند المحزون، واعلم أنه يحقدُ على المنطلق^{١٢٣} ويشكر للمكتئب.

اعلم أنَّك ستسمع من جُلسائك الرأبي، والحديث تُنكرُهُ وتستجفيه وتستشعنه من المتحدث به عن نفسه أو غيره، فلا يكوننَّ منك التكذيب، ولا التسخيف لشيء مما يأتي

^{١١٨} يقال بدهه بكذا: استقبله به أو بدأه به وبدهه أمر: فجأه.

^{١١٩} من الجفاء وهو الغلظة والفظاظة، والفقه: العلم بالشيء والفهم له.

^{١٢٠} الأعجمي والأعجم: الذي في لسانه عجمة وكُنة.

^{١٢١} أي عادوه.

^{١٢٢} من الشفقة، وهي حرص الناصح على صلاح المنصوح.

^{١٢٣} من انطلاق الوجه وهو انبساطه بالبشر والسرور.

به جليسيك، ولا يُجَرِّئُكَ على ذلك أن تقول: إنما حدثت عن غيره، فإنَّ كلَّ مردودٍ عليه سيمتعضُ^{١٢٤} من الردِّ، وإنَّ كان في القوم من تكرهه أن يستقرَّ في قلبه ذلك القول، لخطأ تخاف أن يعقد عليه، أو مضرَّة تخشاها على أحدٍ، فإنَّك قادرٌ على أن تنقُصَ ذلك في ستر، فيكون ذلك أيسرَ للنقض وأبعد للبعضة.

ثم اعلم أنَّ البِغْضَةَ خَوْفٌ، وأنَّ المودَّةَ أَمْنٌ، فاستكثر من المودَّة صامتاً، فإنَّ الصمت سیدعوها إليك، وإذا ناطقت فناطق بالحُسنَى، فإنَّ المنطقَ الحَسَنَ يَزِيدُ في ودِّ الصديق، ويستلُّ سخيمة الوغر.^{١٢٥}

ولتعلم أنَّ حَفْضَ الصوت، وسكونَ الريح، ومشيَّ القَصْدِ^{١٢٦} من دواعي المودة، إذا لم يخالط ذلك بأو^{١٢٧} ولا عَجْبٌ، أمَّا العُجْبُ فهو من دواعي المقتِ والشَّانِ.^{١٢٨}

مطلبٌ «في بيان أنَّ المستشار ليس بضامن وجه الصواب»

اعلم أنَّ المستشار ليس بكفيل،^{١٢٩} وأنَّ الرأي ليس بمضمونٍ، بل الرأيُّ كلُّه غَرَرٌ؛^{١٣٠} لأنَّ أمور الدنيا ليس شيءٌ منها بثقة؛ ولأنه ليس من أمرها شيءٌ يدركه الحازم إلا وقد يُدركه العاجز، بل ربما أعيأ الحَزَمَةَ ما أمكَنَ العَجَزَةَ؛ فإذا أشار عليك صاحبك برأي، ثم لم تجد عاقبته على ما كنت تأملُ، فلا تجعل ذلك عليه ديناً، ولا تُلْزِمُهُ لَوْماً وَعَدْلاً؛ بأن تقول: أنت فعلت هذا بي، وأنت أمرتني، ولولا أنت لم أفعل، ولا جَرَمَ لا أطيعك في شيءٍ بعدها، فإن هذا كله ضجرٌ ولؤمٌ وخفَّةٌ.

فإن كنت أنت المشير، فعمل برأيك أو تركه، فبدا صوابك فلا تَمُنْ به، ولا تُكْتَرِنَنَّ ذِكْرَهُ إن كان فيه نجاح، ولا تَلْمُهُ عليه إن كان قد استبان في تركه ضرر؛ بأن تقول: ألم أقل لك: افعل هذا. فإنَّ هذا مُجانبٌ لأدب الحكماء.

^{١٢٤} يغضب ويشق عليه.

^{١٢٥} أي الحقد والضغن والعداوة.

^{١٢٦} القصد ضد الإفراط.

^{١٢٧} البأو هو الفخر والكبر والتية.

^{١٢٨} البغض.

^{١٢٩} الكفيل: الضامن، يريد أن الذي يشير عليك لا يضمن إنجاح مشورته.

^{١٣٠} أي على غير عهدة ولا ثقة.

مطلبٌ «في الحرص على الاستماع»

تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماع كما تتعلَّمُ حسن الكلام، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه، وَقَلَّةُ التَلَفُّتِ إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم، والوعي^{١٣١} لما يقول.

واعلم — فيما تُكَلِّمُ به صاحبك — أَنَّ مما يُهَجَّنُ صواب ما يأتي به، ويذهب بطعمه^{١٣٢} وبهجته، ويُزْرِي^{١٣٣} به في قبوله، عَجَلْتُكَ بذلك، وقطعك حديث الرجل قبل أن يُفْضِي إليك بذات نفسه.

مطلبٌ «في أن الزهد في الدنيا لا يكون مع تعذرها عليك»

إن رأيتَ نفسك تصاعَرتَ إليها الدنيا، أو دعتَكَ إلى الزهادة فيها على حال تعذَّرَ من الدنيا عليك؛ فلا يغرِّبُكَ ذلك من نفسك على تلك الحال، فإنها ليست بزهادة، ولكنها ضجرٌ واستخذاء^{١٣٤} وتغيُّرُ نفس عند ما أعجزك من الدنيا وغضب منك عليها مما التوى^{١٣٥} عليك منها، ولو تَمَمَّتْ على رفضها، وأمسكت عن طلبها، أو شُكِّتْ أن ترى من نفسك من الضَّجَرِ والجزع أشد من ضجرك الأول بأضعافٍ، ولكن إذا دعتك نفسك إلى رفض الدنيا — وهي مقبلة عليك — فأسرع إلى إجابتها.

مطلبٌ «في التحذير من الدفاع عمَّنْ ذُكِرَ بنقيصة»

اعرف عوراتك، إِيَّاكَ أَنْ تُعَرِّضَ بِأحَدٍ فيما ضارِعها،^{١٣٦} وإذا ذكرتَ من أحدٍ خليقةً، فلا تُناضل عنه مُناضلة الدُفَاعِ عن نفسه، المُصَغِّرِ لِمَا يَعيِبُ النَّاسُ منه؛ فَتَنَّتْهُم بِمِثْلِهَا، ولا تُلَحَّ كُلَّ الإلحاح، وليكنْ ما كان منك في غير اختلاط، فإنَّ الاختلاط من محققات الرِّيبِ.

^{١٣١} وعي الحديث: حفظه وتدبره.

^{١٣٢} طعم الشيء: حلاوته أو مرارته والمراد هنا طلاوته وبهاؤه في الأصل.

^{١٣٣} يقال أزرى به الخلق: عابه.

^{١٣٤} الاستكانة والخضوع.

^{١٣٥} صعب عليك إليه الوصول.

^{١٣٦} شابهها ومائلها، وهو المبالغة في الغضب.

مطلبٌ «في التحذير مما يجرح قلب الجليس من ألفاظ الذمِّ والتشهير»

إذا كنتَ في جماعةٍ قومٍ أبداً فلا تُعَمِّنْ جيلاً من الناس أو أمةً من الأممِ بِشَتْمٍ ولا ذَمٍّ، فإنَّكَ لا تدري: لعلك تتناول بعض أعراضِ جُلَسائِكَ مُخْطِئاً، فلا تأمَنُ مُكَافَأَتَهُمْ، أو مُتَعَمِّداً فتنسبَ إلى السَّفَه، ولا تُذَمَّنَّ مع ذلك اسماً من أسماء الرجال أو النساء بأن تقول: إنَّ هذا لقبِيحٌ من الأسماء، فإنَّكَ لا تدري لعلَّ ذلك غير موافقٍ لبعضِ جُلَسائِكَ، ولعله يكون بعض أسماء الأهلين الحُرْم، ولا تستصغرنَّ من هذا شيئاً، فكلُّ ذلك يجرحُ في القلب، وجرحُ اللسان أشدُّ من جرح اليد.

ومن الأخلاق السيئة على كل حال مُغالبَةُ الرجل على كلامه والاعتراضُ فيه، والقطعُ للحديث.

ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها — إذا حدَّث الرجل حديثاً تعرفه — ألا تسابقه إليه وتفتحه عليه وتشاركه فيه، حتى كأنَّكَ تُظهِر للناس أنك تُريد أن يعلموا أنَّكَ تعلمُ مثلاً الذي يعلم، وما عليك أن تهنته بذلك وتُفردَهُ به.

وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثيرةٌ.

إذا كنتَ في قوم ليسوا بلُغاء ولا فُصحاء فدعِ التناول عليهم بالبلغة والفصاحة. واعلم أنَّ بعضَ شدةِ الحذرِ عونٌ عليك في ما تحذرُ، وأنَّ بعضَ شدةِ الاتِّقاءِ ممَّا يدعو إليك ما تنقي.

واعلم أنَّ الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال في التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم، وكلُّ ذلك أبيضٌ عند سامعيه من وَضَحِ^{١٣٧} الصُّبْح، فلا تكوننَّ من ذلك في غرور، ولا تجعلنَّ نفسك من أهله.

اعلم أنَّ من تنكَّب^{١٣٨} الأمور ما يُسمَّى حَذَراً،^{١٣٩} ومنه ما يُسمَّى حَوَراً،^{١٤٠} فإن استطعت أن يكون لحينك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعل؛ فإن هذا الحذرُ، ولا تنغمس فيه ثم تتهيبه؛ فإن هذا هو الحَوَرُ، فإنَّ الحكيم لا يخوض نهراً حتى يعلم مقدار غوره.

^{١٣٧} الوضَح محرَّكاً: البياض والضوء.

^{١٣٨} التباعِد والعدول عنها.

^{١٣٩} الحذر والاحتراز.

^{١٤٠} الحور والضعف.

قد رأينا من سوء المجالسة أنَّ الرجل تثقلُ عليه النعمة يراها بصاحبه، فيكون ما يشتقي بصاحبه — في تصغير أمره وتكدير النعمة عليه — أن يذكر الزوال والفناء والدول، كأنه واعظ وقاص، فلا يخفى ذلك على من يُعنى به ولا غيره، ولا يُنزل قوله بمنزلة الموعظة والإبلاغ، ولكن بمنزلة الضَّجَر من النعمة — إذا رآها لغيره — والاعتماد بها والاستراحة إلى غير رَوْح.

وإني مخبرك عن صاحب لي، كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه في عيني صِغَر الدنيا في عينه؛ كان خارجاً من سلطان بطنه؛ فلا يتشهى ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وَجَدَ، وكان خارجاً من سلطان فَرْجِه؛ فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخفُّ له رأياً ولا بدنأً، وكان خارجاً من سلطان لسانه؛ فلا يقول ما لا يعلم ولا ينازع فيما يعلم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة؛ فلا يُقدم أبداً إلا على ثقةٍ بمنفعةٍ. كان أكثرَ دهره صامتاً فإذا نطق بَدَّ الناطقين.

كان يُرى متضاعفاً مستضعفاً، فإذا جاء الجدُّ فهو الليث عادياً. كان لا يدخل في دعوى، ولا يشترك في مراء، ولا يُدلي بحجَّة حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً.

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره. وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى مَنْ يرجو عنده البرء. وكان لا يستشير صاحباً إلى من يرجو عنده النصيحة. وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى. وكان لا ينقم على الوليِّ، ولا يَغفلُ عن العدوِّ، ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إنْ أطقتَ — ولن تطيق — ولكنَّ أخذَ القليل خير من ترك الجميع.

واعلم أنَّ خير طبقات أهل الدنيا طبقةٌ أصفها لك: مَنْ لَمْ ترتفع عن الوضيع ولم تنزع عن الرفيع.